Uneven pages within the book only.

يطلب من

أبناء مولوي محمد بن غلام رسول السورتي

تجار الكتب - جامع محلة بمبئي نمرة ٣

MOLVI MOHAMMED BIN GULAMRASUL SURTI'S SONS

BOOK Sellers, Printers & Publishers, Jamli Moholla, BOMBAY: 3.

الجزء الاول



صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم

الدكتور زكي مبارك

الطبعة الثانية

سنة ١٩٣٥ م — ١٣٥٤ هـ

يطلب من

المكتبة المحمودية التجارية بميدان الجامع الأزهر بمصر

الاهداء

إلى الطبيب الموفَّق
الدكتور محمد عبد الحى
اهدى هذا الكتاب .

المخلص
زكى مبارك

مصر الجديدة فى أول رجب سنة ١٣٥٤ هـ

طبع فى
المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر

مقدمة

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فى مثل هذه الأيام من سنة ١٩١٤ بدأت أنشر بعض الرسائل الأدبية فى جريدة الأفكار ، ولا أزال مع تقادم العهد أتذكر كيف تخيلت عنوان تلك الرسائل ، وكيف طاب لى أن أسميها البدائع ، أما أثر المقال الأول في نفسى فسيظل باقيا ما حييت ، وما ظن القارىء بشاب يتوهم أن الأدباء هم الناس كل الناس ، وأن مظهر الأدب مقال ينشر فى جريدة سيارة فيحدث الناس عنه ، ويمسى موضع الأسمار فى الأندية والمجتمعات !

وكم تمنيت لو اتسع الوقت فأرجع إلى مجموعة (الأفكار) فى دار الكتب المصرية لأرى بواكير (البدائع) وأشهد كيف واجهت الجمهور أول مرة ، وكيف كان أسلوبى فى ذلك الحين

ولكن ماحاجتى إلى ذلك وأنا أعرف أني لم أصدر يوما إلا عن نفسى ، فكان أسلوبى دائما صورة لما أنا عليه من حلم وجهل وشك ويقين ، وعقل وفتون ، وإنى لأتذكر أنى ترقبت مقالى الأول وأنى قرأته حين ظهر نحو خمس مرات ، فمن الخير أن أصارح قرائي بأنى لا أزال أترقب مقالاتي فى البلاغ وأكون أول قارىء فى أكثر الأحيان

فان لم يكن بد من بيان المنهج الذى سلكته منذ ابتدأت أكتب إلى اليوم ، فانى أحدث قرائى بأن السر فى نجاحى يرجع إلى أصلين : الصدق والوضوح

أما الصدق فالناس جميعا يشهدون أثره فيما نشرت من الرسائل والقصائد ، وقد أفصحت عن سرائر نفسي مرات كثيرة ، أظهرها ما جاء في كتاب « ذكريات باريس » إذ أقول :

« وأعود إليك ياصديقي فأخبرك أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب : فقد فهمت كل شيء وعرفت كل شيء ، وبقي قلبي كالغابة في ضمير الظلماء . فان قلت لك إني أشكو خيبة في الحب ، أو إخفاقا في المجد ، أو غدرا من الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول . وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات

وأنا لم أنجح في شيء من ذلك : لأن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب فانا عند أنصار الحزب الوطني شعبي يناصر الوفديين ، وعند الوفديين وطني يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب

وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار وفاجر عند الأبرار ، فانا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب »

وأما الوضوح فهو عندي ميزة أصيلة ولا أكاد أخط سطرا إلا بعد أن تتمثل الفكرة أمامي في مثل بياض الصبح المشرق ، وما عرضت لمعنى دقيق إلا كشفته ، ورفعت عنه أستار الغموض ، وتركته يصافح القارئين وكأنه من البديهيات

ويضاف إلى هاتين المزيتين مزية ثالثة هي الحيوية العنيفة في نقد الآراء ، فانا في كل ما أكتب وما أقول محارب لايرى الحياة إلا

فى حومة القتال ، وليس الأدب عندى مزاحا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث ، وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والعقل والخيال

وهذه المجموعة التى سميتها البدائع تمثل مذهبى فى الأدب أصدق تمثيل ، وما ترونه فيها من الكلام عن الأشخاص لا يقل حيوية عما تحدثت عنه فى عالم المعانى، وقد وفقت إلى رسم شخصية الشيخ محمد المهدى والشيخ سيد المرصفى وهما إمامان نسيهما الناس، واستطعت أن أدل القارئ على بعض الملامح من اسماعيل رأفت ولطفى السيد وتحدثت عن السباعى وشوقى وحافظ باسهاب ، أما الغراب طه حسين فقد ترفقت به وزففته إلى قراء البدائع فى جلوة طريفة ستنتقل أخبارها من جيل إلى جيل

يبدو كتاب البدائع فى الطبعة الثانية وكأنه كتاب جديد ، كان جزءاً واحدا فأصبح جزأين ، ونظر المؤلف فى الطبعة الأولى فحذف منها اشياء كثيرة لم يرها اهلا للطبعة الثانية ، وكان فى الطبعة الأولى اشعار كثيرة فاكتفى المؤلف بحياتها فى الديوان ، ولم يثبت فى الطبعة الجديدة إلا قصيدة « ساعة حب » التى نظمها بعد ظهور الديوان

وقد حرص المؤلف على تأريخ الرسائل ليستطيع درس نفسه حين يشاء ، أو حين يشاء التاريخ ، فسيكون لمؤلف « النثر الفنى » منزلة فى تاريخ الأدب بعد أن تفنى النزوات الوقتية التى يمليها الحقد على خصومه من أبناء الزمان

فان رأيت ايها القارئ شواهد من اختلاف الفكرة والأسلوب فتذكر انى اردت ان أدلك على التطور الذى اتصل بشخصية زكى مبارك من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٣٥

وفى هذا الكتاب فصول كان كتبها « الفتى الأزهرى » بين

سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٢ والفتى الأزهرى صديق حميم كان ألف لجنة لاصلاح الأزهر والمعاهد الدينية ، وكانت رسائله يوم صدورها ثورة فكرية ضج لها المسئولون فى تلك المعاهد وتركت فى أنفسهم أثرا بليغا

وإنما اثبت رسائل « الفتى الأزهرى » لتكون صورة تاريخية للحياة الأزهرية ، ويسرني ان اسجل ان الأزهر تطور فى حدود ما رسم « الفتى الازهرى » من ضروب الاصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق

وفى الكتاب فصول كتبها المؤلف وهو فى باريس ، وبعض تلك الفصول يشرح الحياة التعليمية فى البلاد الفرنسية ، وبعضها يشرح ما فى باريس من ضروب الغى والرشد والعقل والجنون

وفى الكتاب فصل مطول عن دواعى الشعر كان نشره المؤلف في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ وفيه حوار بين المؤلف وبين السيد حسن القاياتى ، ومزية هذا الفصل أنه يسجل انزواء الشعراء فى ذلك العهد ، ويبين كيف انطوت صحيفة الشعر فى أيام الدماء ، وما أردت باستبقاء هذا الفصل أن أتجنى على فلان أو فلان ، وإنما هو واجب نؤديه لذمة التاريخ

وقد خلا الكتاب من الذكريات السياسية فلم يقع فيه من ذلك غير رسالتين ، أولاهما كتبها المؤلف وهو معتقل سنة ١٩٢٠ والثانية كتبها أخيرا عن ذكرى شهر مارس سنة ١٩١٩ ولم يرد باثبات هاتين الرسالتين إلا تسجيل حالة نفسية عاناها واكتوى بنارها يوم كان من خطباء الثورة المصرية

وفى الكتاب أقباس من النزق والطيش أبقاها المؤلف وهو

كاره ، لأنه يعلم أن من حق نزواته وبدواته أن تسجل فى كتاب ، وفى النزق والطيش عناصر من نور الحق لو يعلم المتزمتون ، وهل كنت أول كاتب سطرت يمناه ما يملى الهوى والوجدان حتى أطوى ما كتبت فى اللهو الجامح والوجد المشبوب ؟

ومن العجب والله أن نعتذر عن تسجيل ما أملته سرائر القلب والروح ، ولكن هذا الاعتذار هو الشاهد على ما يسود هذا العصر من التزمت والرياء

ألم يكف مانعانى من لؤم الحاسدين والحانقين ؟

ومن هو الرجل الصالح الذى تفرض علينا تقواه أن نطوى ما كتبناه فى الوجد والتشبيب ؟

أكتب هذا لمن عساه يعترض حين يرانى أقول فى رسالتى عن عيد الحرية فى باريس :

« إن الفوز الأكبر أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه أما هذه الصور التى لا تضحك ولا تعبس إلا وفقا لشائع الأهواء والأغراض فهى أقل حياة من الدمى والتماثيل ، وأين يكون أصحابنا المتزمتون من الدمى والتماثيل وهى لم تصنع إلا لتمثيل ما دق ولطف من وثبات العقول ، وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس »

يشهد القارىء فى هذا الكتاب طوائف مختلفة من الصور الوجدانية والأدبية والاجتماعية ، وما أدعى أن القارىء سيرضى عنها جميعا ، وهل فكرت فى رضاه حتى أنتظر منه ذلك ؟ ولكنه سيؤمن ولا ريب أنه يواجه شخصية مستقلة تمام الاستقلال ، فان رأى علما فهو علم المؤلف ، وإن رأى جهلا فهو جهل المؤلف ،

ومن الناس من يعلم عن جهل ، ويجهل عن جهل ، كما يتفق للغراب.
« طه حسين ».

فى هذا الكتاب صورنا الحيـــاة كما عرفناها بالعقل والقلب والوجدان ، فلم يأسرنا أحد من أهل المشرق أو المغرب ، فان رأى القارىء أطيافا لما قرأنا فى الآداب العربية والفرنسية فليعلم أن ذلك لم يقع إلا طوعا لتجاوب العقول والقلوب ، وليعرف أنا كنا صادقين يوم قلنا فى مقدمة الطبعة الأولى :

« ما بال فريق من الناس يؤمنون بما خلقت له أيديهم وأرجلهم وعيونهم وآذانهم ، ثم يرتابون فيما خلقت له عقولهم ؟ فلا وربك لا يؤمنون حتى يعرفوا أن المؤمن عن نعمة العقل مسئول . وما كنت لأعق العقل وقد حكمه الله يوم هدانى إلى الايمان ، فمن كان يريد أن يرى غضبتى للحق وعبادتى للجمال ، فليقرأ هذا الكتاب ، ومن كان يريد أن يرى صورة مكررة لمن سلف من الكتاب والشعراء ، فليعلم أن الخمول أحب إلى من أن أكون صدى لأحد من القدماء ، أو المحدثين ، وما أهون التضحية فى سبيل الابداع إذا انحصرت فى الخمول ».

***

أما بعد : فالى قراء اللغة العربية أقدم هذا الكتاب راجيا أن يقع من المنصفين منهم موقع القبول ، وأسأل الله أن يتجاوز برحمته عما أخشى أن يكون وقع فيه من عنف الرأى وطغيان البيان.

زكى مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العهد الماضى

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين فصلا ممتعاً فى المقتطف عن « النثر العربى فى نصف قرن » تناول فيه طائفة من المسائل التى تعنى مؤرخ الآداب حين يراجع أساليب الكتاب واتجاهاتهم العقلية فى الخمسين سنة الماضية ، وأعفى نفسه من التحدث إلى القارئ «عن شخصيات الكتاب الناثرين فى مصر وغير مصر ، وآثار هذه الشخصيات فى أساليبهم النثرية » وقد رأيت بهذه المناسبة أن أتكلم عن شخصية واحدة من شخصيات الكتاب فى العهد الماضى ، وهى شخصية رجل عرفته وصحبته وأخذت عنه : هى شخصية المرحوم الأستاذ الشيخ محمد المهدى بك ، المتوفى فى ١٦ يناير سنة ١٩٢٤

حياته وآراؤه

ولد المرحوم الشيخ محمد المهدى فى قرية من قرى مديرية الشرقيه ، وطلب العلم فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم وقام بطائفة من الأعمال العلمية أهمها تدريس آداب اللغة العربية

بمدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية ، وأشهر الأساتذة الذين تلقى عنهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ حمزة فتح الله ، وأشهر من أخذ عنه من رجال الأدب : الدكتور طه حسين . وله معه مواقف فى النزاع بين القديم والجديد كانت تصل أحيانا إلى الجدل العنيف.

كان الأستاذ المهدى أول من تلقيت عليه الأدب فى الجامعة المصرية ، وقد صحبته فيها أربع سنين ، وسمعت محاضراته عن عهد الجاهليه ، وعهد بنى أمية ، وعصر بنى العباس ، وخص الأدب فى الأندلس بسنة كاملة كانت من أخصب سنيه فى العهد الأخير ، وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل إلى المحطة ، وقد كان رحمه الله يؤثر سكنى الضواحى على سكنى العاصمة ، فكانت الفرص كثيرة لمخاطبته فى شتى المسائل وشجون الحديث ، ويمكن الحكم بأنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر ، واستمعوا نداء هذا الجيل .

كان يؤثر اللغة الفصيحة فى جميع محادثاته ، وكان يتحرز من اللحن ويتوقاه كما يتوقى الحر مدارج الهوان ، وكان يرى من الممكن أن نتفاهم مع جميع الطبقات باللغة الفصيحة ، ولا يكلفنا ذلك أكثر من اختيار الألفاظ المألوفة حين نحاور من لا يفهمون الجزل من الكلام الفصيح ، وكان كثيرا ما يتهكم بعلماء الأزهر حين يلحنون وهم يعربون فى مثل عبارة « مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة » . وقد نشأ عن حرصه على اللغة الفصيحة أن ذاعت عنه الفكاهات والملح

بين زملائه وبين تلامذته ، فهذا يقول إنه اختلف مرة بسبب لغته مع سائق الترام ، وذاك يقول إنه ساق أحد الباعة إلى القسم بعد أن تلاحيا : أولهما بلغة السوق وثانيهما بلغة القرآن !

وكان من رأيه أنه يجب أن لا نهجر الألفاظ الغريبة فى الكتابات الأدبية والعلمية والفنية ، لأن غرابة الألفاظ لم تنشأ إلا حين هجرها الأدباء والعلماء والفنيون ، فلو أننا أحيينا فى كل رسالة كلمة أو كلمتين لبعثنا ميت اللغة وأثرنا دفين التعابير ، وكان لنا من ذلك غناء أى غناء.

كان رحمه الله من المجددين ، مع شىء من الحيطة والحذر ، فربى ابنته تربية حديثة ومكن لها من ورود مناهل العلم فى الغرب ، وزار بنفسه العواصم الأوروبية ، وإن لم يتكلم غير العربية ، وكان لكل مدينة فى نفسه تقدير خاص ، ولا يزال تلامذته يتندرون بقوله فى وصف إحدى الحواضر الاسبانية «تصر فى منديل» ! وتزوج فى آخريات أيامه امرأة جميلة ، وقد حدثنى رحمه الله أنه اشترط « أن يرى وجهها وأن يسمع صوتها » إذ كان يعتقد أنه لا قيمة للوجه الحسن بدون الصوت الجميل ، وكان كثيراً ما يسوقه مثل هذا الحديث إلى الكلام عما فعلته الخنساء حين اختبرت من جاء يخطبها لنفسه ، فلما زهدت فيه قال :

وتزعم أننى شيخ كبير فهل حدثتها أنى ابن أمس ؟

وكان الأستاذ يقول وهو يؤكد وجوب اختيار الزوجة «إنك لا تشترى حزمة فجل قبل أن تقلبها ؛ فكيف تأخذ العشيرة قبل أن

تعرفها » وكان يأسف على حرمان المرأة من النهوض ، ويعجب من استصغار حملة الأدب ورواة الشعر لشأن المرأة ، وغمطهم من حقها وإهمالهم الأدب إذا كان من جانبها ، وقلة عنايتهم بتدوينه إذا كان مرويا عنها ، ويقول : « فان لم يكن ذلك كذلك فما بالنا نسمع من أسماء الشواعر فى الجاهلية العدد العديد ولا نرى لواحدة منهن ديوانا حافلا مجموعاً مرتبامشروحا كما نرى ذلك لأكثرالشعراء ، فقد عنى العلماء بدواوينهم رواية وشرحا وترتيباً ومفاضلة ، وبذلوا وسعهم فى إظهار معانيها المخترعة ومقابلة بعضها ببعض ، ومآخذ المشترك منها والموازنة بين المأخوذ والمأخوذ منه ، ومقارنة الديباجة والوضوح والمتانة والسلاسة والسلامة من عيوب اللفظ وما شاكل ذلك بنظائرها من كلام الشاعر الآخر ، ولم يكن لعلماء اللغة ورواتهامثل هذه العناية لشاعرة من شواعر الجاهلية فيما أعلم ، حتى الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ ، كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال» وكان يعزز رأيه هذا بأن أبا زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجىء فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، مع أن فى كلام ليلى العفيفة وجليلة بنت مرة والخنساء وليلى الأخيلية ما لا يذكر بجانبه شعر كثير من أصحاب المذهبات والمشوبات والملحمات والمنتقيات ، وأن المفضل الضبي اختار مائة وعشرين قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من

بني حنيفة ، ثم يقول : « فهذه مكانة شعر النساء فى نظر المؤدبين والرواة والعلماء فى ذلك الزمن ،وكأنما الذين جاءوا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل ، فما رأيتهم دونوا شعر ليلى الأخيلية فى ديوان كما دونوا شعر المجنون ، ولا شعر علية بنت المهدى كما دونوا شعر أبى العتاهية ، ولا دونوا شعر ولادة بنت المستكفى كما دونوا شعر ابن زيدون ، وقس على هذا سائر الفضليات بعدهن ، خصوصا بعد سقوط بغداد ثم أفول قرطبة . فان شعر المرأة فى هذا الزمان قد اختبأ تحت جهالات الرجال ، ولم يظهر منه إلا بروق لا تلبث أن تزول » وقد وصل بدراسته الدقيقة إلى أن الفروق بين أشعار الرجال وأشعار النساء من جهتين : الأولى من جهة صفة الشعر والثانية من جهة فنونه . وملخص الجهة الأولى أن شعر المرأة يجلى أخلاقها أكثر مما يجلى شعر الرجل أخلاقه ، وأنه يدور حول موضوعها ولا يكاد يخرج عنه ، وأنه بعيد عن الحوشية قريب من الفطرة ومتناول العامة ، وأنه أصرح من شعر الرجل لأنها لا تكاد تبقى شيئا فى نفسها ، وأنه أشد أثرا فى النفوس من شعر الرجل وخصوصاً ما كان منه فى الفجائع . وأما من جهة الفنون فقد هجرت المرأة وصف الجمال ومجالس الشراب لغلبة الحياء عليها ولاستقباح ذلك منها ، وأن مادتها أغزر من مادة الرجل فى الرثاء .

أسلوبه فى الالقاء والانشاء

كان رحمه الله من أبرع الناس في الالقاء ، وأجملهم فى الأداء ،

كان فصيح المنطق حلو اللسان ، لا يمل حديثه ولا خطابه ، وإن طال . وكان ينشد الشعر كما يجب أن ينشد ، وكما يتمنى قائله أن ينشد . ولقد كان ينشد الشعر وهو يحاضر فى الجامعة المصرية فيقع من نفسى ومن أنفس السامعين أجمل موقع ، فاذا عدت إلى الشعر نفسه فى مظانه وجدته دون ما سمعت فى الروعة والجمال ، وعلمت أن لأسلوب المحاضر فى الأداء أثرا كبيرا فى تكييف النثر الجيد والشعر البليغ

أما منهجه فى الانشاء فهو إيثار الصراحة والوضوح والجلاء وأسلوبه فى الكتابة من الأساليب النقية الجميلة ، وهو عندى أبرع كتاب مصر فى المدة التى أرخها الدكتور طه حسين ، لولا أنه كان من المقلين

مثال

أراد رحمه الله أن يحدد (معنى الأدب) فقال :

« الأدب مصدر أدب الانسان فهو أديب ، ومثله أرب فهو أريب ، إذا صار فيه خلق يدعو إلى المحامد ، وينهى عن المقابح . والتأديب التقويم على أشرف الخلال ، ومنه الحديث : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » والأدب والتأديب بهذا المعنى يكادان يدخلان فى كل شيء . ولهذا قسما إلى أقسام لا تكاد تنحصر ؛ فكانا فى النفس والدرس والمعاملة والمعاشرة وفى طبقات الناس وفى الأمم ، وفى الأكل والشرب والنوم واللباس والحديث إلى غير ذلك من كل ما

يعوزه التقويم . وقد أفرد له العلماء التآليف في فنونه الكثيرة وضروبه المختلفة ، وقام المصلحون في كل أمة بالدعوة إليه على وجهه الصحيح ، ولتشعب هذه الأقسام وصعوبة لمح الذهن لها جميعاً انحازت للأدب في الأذهان معان عدة متوزعة في أذهان الناس فاذا أطلقت كلمة الأدب في حفل من غير إضافة ولا قرينة ذهبت الظنون فيها مذاهب، وفهمها كل قوم على مقدار ماتبين لهم من معناها بعرف أو دين أو قانون أو اصطلاح

«وقد كانت هذه الحال عند العرب أنفسهم : فانا رأيناهم يطلقونه على معان عدة لا تكاد تخرج عن المعنى العام لها . فانهم يطلقونه على الظرف ، ويريدون منه تارة البراعة وذكاء القلب ، وتارة الحذق بالشيء ، وقد يريدون حسن الهيئة وحسن التناول ، وربما أرادوا به الظرف في اللسان وهو ضرب من الأدب ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في الحديث : إذا كان اللص ظريفاً لم يقطع . ومعناها : إذا كان بليغاً جيد الكلام احتج عن نفسه بما يسقط عنه الحد . ومثل ذلك إطلاقه على الكياسة ، وقد جاء في حديث ابن سيرين : الكلام أكثر من أن يكذب ظريف . ومعناه : أن الظريف لا تضيق عليه معاني الكلمات فهو يكني ويعرض ولا يكذب . وقد اجتاز العرب هذا الحد ، وأطلقوه على الرياضة والخضوع في الدواب ، ومنه قول مزاحم العقيلي :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل

فقد سمى الجمل أديباً

« وإذا كانت هذه المعانى وأشباهها فى لسان العرب فليس من البدع أن يذهب مدونو الأدب فى تدوينه طرائق ، كل على حسب المعنى الذى مثل فى ذهنه : فمن نحا به نحو الخلق وطهارة النفس وتهذيبها من أدران الرذائل ألف فى مكارم الأخلاق ، وسمى تأليفه أدبا . ومن نحا به منهم نحو حسن التناول ألف فى محاسن المعاشرة والتعامل ، ومن نحا به منهم نحو الظرف فى اللسان وهو البراعة وذكاء القلب ألف فى النوادر والأجوبة المسكتة والطرائف المستملحة ، وسمى ذلك أدبا . ومن نحا به منهم نحو الصواب فى المنطق وصون اللسان عن الخطأ فى كلام العرب ألف فى الفنون العربية ، والناحون هذا المنحى هم حملة اللسان إلينا وهم السواد الأعظم من مؤلفى الأدب ، وهم طوائف كثيرة ، نظرت كل طائفة إلى حال من أحوال اللفظ العربى وألفت فيه : فنظرت طائفة إليه من جهة معانيه فدونت معانى الألفاظ ، وهم علماء متن اللغة . ولمحته فئة من جهة هيئته وصورته فألفت علم الصرف ، وتتبعه قوم من جهة انتساب بعضه إلى بعض بالأصالة والتوليد فألفوا علم الاشتقاق ، وتأمله آخرون من جهة تركيبه وأحوال أواخر مفرداته فى التراكيب فألفوا علم النحو . واتجهت طائفة إليه من ناحية الأسلوب ومطابقته لمقتضى حال الخطاب فألفت علم المعانى ، وتفقده آخرون من جهة مراتب وضوحه فألفوا علم البيان ، وبهر قوما محاسنه اللفظية والمعنوية

فألفوا البديع . ولمح قوم الموزون منه فألفوا العروض والقافية ونظر قوم إلى الثمرة من كلام العرب وأنها القدرة على البيان قولا وكتابة فألفوا فن الانشاء وهو الاجادة فى المنثور ، ونظر آخرون إلى محاكاته بالموزون فألفوا قرض الشعر ، وقوم رأوه من جهة رسمه ودلالته الكتابية فألفوا الخط ، وآخرون رأوه من جهات عدة فقطفوا من كل روض زهرة وألفوا فن المحاضرات وهو لا يختص بشىء »

ثم قال « بقى أن ننظر إلى المراد بالأدب هنا فى دروس الجامعة فنقول : المراد منه كل ما ينمى ملكة اللغة فى اللسان والقلم وتربية الذوق فى الاختيار والانشاء ، والارشاد إلى مناهج النقد الصحيح. والوسيلة إلى ذلك اختيار الرائع من الأساليب والرائع من المعانى وعرضه على الطلبة لبيان وجوه الحسن فيه ، والمقارنات بين الفحول من الشعراء ، والمصاقع من الخطباء ، والبلغاء من الكتاب ، وبيان وجوه التفوق مع الالماع إلى أمهات المسائل من فنون اللغة أثناء الموازنات والنقد ، ومعرفة أذواق العصور المختلفة والنص على أجودها وأسلمها . وهذا مؤد إلى الالمام بشىء من تاريخ الأدب لربط الموضوعات بعضها ببعض مما لا يسع الأديب أن يجهله ولا يتم له العلم بدونه كالأغراض التى قيل فيها الشعر ، والبواعث عليه من السياسة والجوائز والعشق ، وكتقسيم الشعراء فى بعض العصور إلى أحزاب وبيان أثر كل حزب ، فان ذلك مما يتوقف عليه فهم مرامى

أشعارهم ، وكذكر تاريخ الشاعر الموازن أو الخطيب أو الكاتب أو المؤلف وأثره ومؤلفاته ، وماذا بقى منها وما الذى وصل إلينا »

نقد هذا المثال

يرى القارئ أن هذه الكلمة التى حدد بها كاتبها «معنى الأدب» غاية فى الوضوح والجلاء ، وهى تاريخ مضبوط لتطور كلمة الأدب وتنوع مدلولها فى مختلف العصور ، وهى كذلك غاية فى الاحاطة والشمول ، ويبعد أن تجد فيها أثراً للضعف أو الغموض أو الاضطراب. وقد اقتطفنا هذه الكلمة من المحاضرة التى ألقاها رحمه الله فى الجامعة المصرية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ وهى تدل على تطور معنى الأدب وتاريخه فى نفسه أيضاً ، فقد رأيته يتردد وهو يحاضر بالجامعة فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٣ فى التفرقة بين الأدب وبين تاريخ الأدب ، ويكاد ينكر أن يكون بين الأدب وتاريخه فرق ، أو أن يكون لكل منهما وجود خاص ، وقد كان هذا التردد طبيعيا فى ذلك الحين إذ كان هذا الفن حديث النشأة فى اللغة العربية ، وكان الباحثون فيه لا يجدون ما يحتذونه من نماذج القدماء أو المحدثين على أنه رحمه الله ظل إلى أخريات أيامه يعتمد فى دراسة الأدب على تفقد ما للشعراء من نضارة الديباجة ، وبلاغة المعنى ، وغزارة الفنون ، وحضور البديهة ، وقلة السقط ، وكثرة الغوص على المعانى وجمال الأخذ ، ووفرة المادة ، وبراعة الأسلوب ، وكان هذا يضطره فقط « إلى الالمام بشىء من تاريخ الأدب لربط الموضوعات

بعضها ببعض» كما قال ، وكذلك ظل منهجه منهجا وسطا بين الأساليب القديمة والمناهج الحديثة ، فلم يكن يسلك سبيل المؤلفين المتقدمين الذين كانوا يجمعون فى كتبهم بين الشعر الجيد ، والنثر المختار والحكم المأثورة ، مع ذكر شيء من المشاهد والأيام والمفاخرات والمنافرات ، ثم يستطردون إلى شتى المسائل فى التصريف والاعراب ، ثم يعودون إلى التحدث عن أخبار الملوك ، ونوادر الشعراء والخطباء ؛ ولم يكن يسلك سبيل المجددين فى تاريخ الآداب الذين يرون من الواجب درس الحياة الاجتماعية قبل نقد آثار العقول ويرون من الواجب كذلك أن يدرس سقط القول كما يدرس جيده وأن يتتبع الناقد حياة من ينقده من الكتاب والخطباء والشعراء والمؤلفين ليرى كيف كانت ألوان نفسه فى أشكال حياته — ولكل حياة طائفة من الأشكال — وإنما كان يحاول رحمه الله أن تكون أبحاثه متعة من متع النفس ، لا دروساً تتناول بالنقد والاختبار والتحليل ماترك لنا الأولون من أثر قوى أو ضعيف.

والذى يعنينى من ذلك كله هو أسلوبه الخالص من شوائب الضعف والتكلف ، والبرىء من موجبات اللبس والغموض وقد يتعذر أن يجد فيه القارىء جملة تنقصها كلمة ، أو يمكن فيها الاستغناء عن كلمة ، وإني لأشبهه بالصيدلى البارع الذى يحكم الجمع بين أجزاء الدواء بحيث لو حذف جزء لأصبح الدواء ضاراً أو غير مفيد.

مثال ثان

وأراد أن يمهد للموازنة بين الخطباء فقال :

« ليت وهل ينفع شيئاً ليت ! ليت مخترع الحاكى كان حياً فى السنين الخوالى وأسعد التاريخ والعلم والأدب بحفظ أصوات الخطباء وهم يتدفقون على منابرهم تدفق السيل فى منحدر الوادى، حتى إذا حاولنا أن نقارن اليوم بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين ناطقتين لايفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكمنا حكما دليله اليقين المحس به لا الظن المتحسس منه . وكان طريق الاستنباط من المسموع ميسوراً لكل سامع ، لا كطريق الاستنباط من المكتوب الذى قطعه التاريخ فتقطعت به سبل العلم ، وأنفق الباحثون أموالهم وأعمارهم فى جمع شتاته ، وقلما يجدون جزءاً يلتئم مع جزء

ماذا تفيد الأمانى ! قد انهار هذا الركن الركين من بناء الموازنة التى نحن بصددها بموت أولئك الخطباء ، ولم يجىء فى بال الأولين من الرواة والكتاب أن يصوروا لنا فى روايتهم عنهم ، وكتابتهم فيهم ، حالهم فى الأداء ، وكيف كانت أصواتهم فى مفاتح الخطب ومقاطعها، وعند الطلب والاستنهاض والاسترحام والاشفاق والرجاء والغضب والرضا والحياء والبذاء والتواضع والاستكبار والشجاعة والجبن والتسرع والتأنى والافحام وإقامة الحجة ، وما شاكل هذا من أطوار الخطباء — وقد كنا نتهم أنفسنا بقصر النظر وقلة البحث ونبرىء الأولين بحسن ظننا فيهم أن يكونوا قد فاتهم هذا ، فبحثنا

جد البحث فى المظان التى وصلت إلينا فما شفينا منها غلة ، ولا وصلنا إلا إلى شيء قليل من غير طلبتنا كلباس الخطيب وإشارته واتخاذ المخصرة والاتكاء عليها والاشارة بها ، ونحو هذا مما هو قشور بالاضافة إلى اللب المتروك . وإن أعجب من هؤلاء فعجبي من أنفسنا اليوم أشد ؛ فاننا فيما أعلم لم نقيد خطبة واحدة فى الحاكى من خطب مشهورينا ، وقلما يشير كتابنا إلى صوت الخطيب إذا نوهوا بخطبته وأكثرهم لا يزيد عن مثل قوله « أجاد وأفاد ، وأغرب وأطرب وسحر وبهر ، وجال فى كل مجال ، وتفتحت له الآذان ، وشخصت له الأبصار ، وأخذت الدرر تتحدر من فيه تحدر اللآلىء من العقد النظيم » وهكذا من كل ما يفيد التقريظ العام ، ولا يصور من الخطابة إلا صورة مبهمة ، ولم نر من عنى من الأدباء وأصحاب الصحف بوصف خطابة من خطب من عصرنا وصفاً ممثلا من جهة الأداء كأن يقول : « إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً ، وعند هذه منخفضاً ، وعند تلك يكاد يكون همساً ، وعند كذا كان صياحا أو كان بطيئا فى كيت سريعاً فى ذيت ، أو كان يقول والألفاظ تواتيه كأنه يقرأ من صحيفة أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخراً ، أو يتحسس منها كالذى ينشد الضالة ، أو أنها كانت مرتبة متناسقة ، أو مقتضبة مفككة ، أو غير ذلك مما يشخص مجموعه الخطابة . ومن منا استفاد تشخيص خطابة المرحوم عبد الله افندى نديم مما كتبته عنه الجرائد والمجلات ؟

هذا عيب من عيوبنا القديمة يجب أن يتقيه قادة الكتاب اليوم حتى يكونوا أسوة لسواهم — وإذا كانت الموازنة بين أصوات الخطباء المتقدمين غير ميسورة؛ وفاتنا أن نقارن فى جهارة الصوت وهزاته وإيقاعه ومخارج الحروف والطلاقة والاحتباس كما فاتنا أن نقارن بين وحى الملاحظ وحركات الاستحسان من الجمهور، فلا يفوتنا أن ننظر إلى الوجوه التى أبقى لنا التاريخ صورها ونقارن بينها » إلى آخر ما قال

نقد هذا المثال

فى هذه الكلمة تظهر تلك العقلية السليمة ظهوراً قويا؛ ويرى القارىء كيف تمثلت فكرة الخطابة فى نفس ذلك الباحث الفنان فهو يتمنى لو أن الحاكى كان حيا فى السنين الخوالى وأسعد العلم والأدب والتاريخ بحفظ أصوات الخطباء « حتى إذا حاولنا اليوم أن نقارن بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين ناطقتين، لا يفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكمنا حكما دليله اليقين المحس به، لا الظن المتحسس منه » وهذه عبارة غاية فى الدقة وحسن الأداء، ثم يعجب لأن يفوتنا اليوم أن نسجل فى الحاكى خطب المشاهير من رجال البيان. ولينظر القارىء كيف سخر ذلك الناقد البصير من العبارات المبهمة والأوصاف الفضفاضة التى تصلح لبوساً لكل موصوف كقولهم « أجاد وأفاد، وأغرب وأطرب، وسحر وبهر » وكيف تنبه إلى أن الكاتب يجب أن يصف الخطابة « وصفاً ممثلا من جهة الأداء

كأن يقول : إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً وعند هذه منخفضاً ، وعند تلك يكاد يكون همساً ، وعند كذا كان صياحا ، أو كان بطيئاً فى كيت ، سريعاً فى ذيت ، أو كان يقول والألفاظ تواتيه كأنه يقرأ من صحيفة ، أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخراً أو يتحسس منها كالذى ينشد الضالة ، أو أنها كانت مرتبة متناسقة أو مقتضبة مفككة ، أو غير ذلك مما يشخص مجموعه الخطابة » .
وقد لام المتقدمين على إغفالهم هذا النوع من الوصف وهم يتحدثون عن الخطباء ، وذكر أنه لم يصل بعد البحث إلا إلى شيء قليل من غير طلبتنا كلباس الخطيب وشارته واتخاذ المخصرة والاتكاء عليها والاشارة بها ، ونحو هذا مما هو قشور بالاضافه إلى اللب المتروك » .
وهو فى هذا اللوم يتجنى على المتقدمين ، فقد عنى كثير منهم بوصف الخطابة « وصفا ممثلا من جهة الأداء » ولو شئت لضربت لذلك الأمثال ويكفى أن نراجع بعض ما قيل فى الخطباء مدحا أو هجاء لنرى كيف تنبه الأولون إلى الجوهر فيما يوصف به الخطيب ، فقول مكى ابن سوادة :

ملىء ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع

من الأوصاف الدقيقة التى تنطبق على كثير من الخطباء المتخلفين ومثله قول الراجز فى خطيب متعثر اللسان :

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق

وفى جهارة الصوت وجودة الخطبة ، ومواتاة القريحة ، يقول .

شاعر فى مدح معاوية :

ركوب المنابر وثابها   معن بخطبته مجهر

تريع إليه هوادى الكلا   م إذا ضل خطبته المهذر

وفى وصف الخطيب بالحزم ومراعاة مقتضى الحال يقول الشاعر فى خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وحى الملاحظ خيفة الرقباء

آثاره الأدبية

وقد يحسن أن ننص على أن هذا الأسلوب البارع لم يكن أسلوب الأستاذ المهدى رحمه الله طول حياته ، فقد رأيت له طائفة من الرسائل كتبها فى العهد الأول من حياته الأدبية ، وفى تلك الرسائل يكثر السجع وتكثر معه زخارف البديع ، وقد كان ذلك الطراز بدعة شائعة فى ذلك الحين ، والسجع فى ذاته حلية نفيسة لولا أنه قيد يضطر الكاتب إلى التعثر فتظهر فى عباراته آثار الاضطراب

ولم يعن رحمه الله باظهار آثاره ، وهى الآن متفرقة فى أماكن شتى بعضها فى أيدى أهله ، وبعضها فى مكاتب أبنائه من طلبة القضاء الشرعى والجامعة المصرية ، وعندى من آثاره رحمه الله طائفة من المحاضرات القيمة ، سمعتها منه وراجعتها عليه ، وقد أستطيع يوما جمع شتات تلك الآثار فى سفر خاص . والله بالتوفيق كفيل .

فى سبيل الوفاء

وفى أخريات سنة ١٩١٧ استقال رحمه الله من منصبه بالجامعة المصرية ، واستقال معه حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك الخضرى - باشارة من وزارة الحقانية - وكانت الجامعة يومئذ أهلية لا تنال من الحكومة ماهى خليقة به من التأييد ، فأقام طلبة الجامعة للأستاذين المهدى والخضرى حفلة تكريم فى فندق شبرد فى مارس سنة ١٩١٨ وقد قلت لتلك المناسبة قصيدة فى توديع الأستاذ المهدى ، ليست عندى من الشعر المختار ، ولكن لا بأس من إيراد القطعة الآتية فى سبيل الوفاء

وما كانت الآداب إلا طرائفا ... من الشعر أو مايستجاد من النثر
فأبرزها المهدى عذراء غضة ... تأود تحت الحلى فى الحلل الخضر
مباحث لو غدى زهير بروحها ... لأضحت قوافيه أدق من السحر
ولو فقه النيل المبارك كنهها ... لحول ذياك المزيج إلى خمر
ولو أذن الدهر العبوس لوقعها ... لأصبحت الأيام ضاحكة الثغر
ولو عرفت مصر المفداة قدرها ... لباتت لما يلقى البيان على جمر
فيا واحدا عز البيان بفضله ... على طول مالاقى البيان من الهجر
لبعدك فى الأحشاء نار ذكية ... تفتت من كبدى وتأكل من صدرى
صبرت عليها يعلم الله راغماً ... على حين لا غوث يؤمل من حر

وإنى لأرجو أن أكون حددت شخصية الأستاذ المهدى بعض

التحديد فى هذا البحث الوجيز ، وأن أكون وفقت إلى بعض ما يوجبه الوفاء بالعهد ، والاعتراف بالجميل ، نحو أستاذ أنا لفضله مدى الدهر مدين . والسلام .

يونيه سنة ١٩٢٦

اخلاق النـــاس

قلب ما شئت من مؤلفات القدماء فسترى أن المؤلفين كانوا يهتمون فى أكثر الأحيان بمحاربة الرذائل الاجتماعية ، لاسيما الغيبة والنميمة لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس . أما المؤلفون فى العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات البالية التى لا تصلح لأقلام المحدثين ، وإنى لأكتب هذه الفقرات فى هيبة وحذر خشية أن يقول قائل : ماهذه الرجعة إلى أوهام الأولين !

ويسألنى من أرى من الأصدقاء : أين تسهر ؟ وأين نراك ؟ والسهرات عند هؤلاء هى جلسات سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس ويجرى فيها من السفه والبذاءة مايندى له الجبين ! وياويل من تكرم عليه نفسه فلا يشترك فى لغو الحديث ، فهو عندهم ثقيل الظل بارد الأنفاس !

والتظرف فى عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين

وفى شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام ، فهم زينة الأندية الرقيعة التى لا تجرى فيها كلمة خير ، ولا تعرف زواياها غير الافك والبهتان من عبث القيل والقـال . وفى كهول اليوم طوائف تتلمس هذه الأنواع البشرية التى تحسن تلفيق الأراجيف والأكاذيب ، وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب وأدباء الـكهول أن يجيدوا شيئا ، وهم يقضون ثلاثةأرباع الوقت فى تلك الأحاديث الممجوجة التى تتنافر مع سماحة الطبع ، وسلامة الذوق ، ورجاحة العقل

أين أسهر ؟؟ أنا أسهر فى بيتى حيث آنس بوحشة الليل ، فقد ضجرت من إخوان الزمان ، وعادت الوحدة أحب إلى نفسى من صحبة من يلبسون ثوبا للمحضر وثوبا للمغيب !!

أين من يعرف أدب النفس فى هذه الأيام ؟ وأين الرجل الذى تثق بـكرمه ومروءته ، وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل اللغو والفضول ممن يبعثرون النمائم ذات اليمين وذات الشمال ؟ وأين من يزن ما يقول ، ويفـكر فى عواقب ما يقول ؟ وأين من سلم أديمه في هذا البلد فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف ؟ دلونا أيها الناس على رجل واحد سلم عرضه وشرفه ، وحفظ معروفه وجميله ، واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين ، وكيد المفسدين .

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب وانتهيت إلى النتيجة الآتية : الغيبة والنميمة من الرذائل الانسانية

يقع فيها المصريون وغير المصريين ، ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستبيحون الاغتياب ، ولكنهم لا يستبيحون البهتان . فالرجل قد يغتابك ولكنه يتحرج من أن يصفك بما ليس فيك ، وقد ينم ولكن نمائمه خالصة من المفتريات .

أما المثقفون منا — وا أسفاه ! — فيجمعون بين الرذيلتين : النميمة والافتراء (١)

ومعنى هذا أن من الأجانب من يعصمه الحياء من خلق الأكاذيب ، وأن فينا من تنقصه فضيلة الحياء

إننا نتحدث كثيرا عن الوطنية ، والوطنية لا تقوم إلا على فكرة الوطن ، والوطن لا يحب إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء فان المودات والعلاقات هي أساس التقديس للافكار والأشخاص

أيها المغتابون والنمامون ! أنتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية وأنتم أعداء أنفسكم لو تعلمون !

١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١

(١) أظن أن الدكتور يريد طائفة خاصة من أدعياء المعرفة والثقافة وإلا فكيف تجتمع الثقافة الحقة وتلك الرذائل فى شخص جدير بأن يكون مثقفا . اه مصححه

الشبـاب المصرى

بين التردد والاقدام

قلق الشباب ورغبته فى معالى الأمور — ثمرة بعض الرؤساء من الشخصيات القوية — كلمة عمن يتمرغون فى وحل الميرى وفي ترابه — غفلة الشبان عن تقدير الحرية — اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب فى قتل عزائمهم

كتب إلى موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الـكلمة الآتية :

« كتبت إليك رسالتى هذه راجيا منك أن تطرق موضوعا ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه ، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة فـكثيرا ما يحاول الانسان تنفيذ خطة يرسمها فاذا به بعد أن كان متحمساً نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر الـكسل والاسترسال فى الأمانى والأحلام ، وأصارحك ياسيدى بأنى من هؤلاء وأن مثلى كثيرون . فانى اقتطعت دراستى والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظى لعدم استكمال تعليمى ، وكل همى أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بهـا نفسى . ولـكنى رغم هذه الرغبة أجد عزيمتى الخـائرة تخوننى فى تنفيذ ذلك رغم محاولتى مقاومتها . . . وتنقضى الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسى فأجد أنى لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، وهذاما

أفزعني من نفسي وجعلني أقصدك كي تعالج هذا المرض . وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلمي أنك الرجل العصامي الذي طلب العلم ومازال يطلبه دون أن يقف في وجهه ما يعوقه — وما أكثر تلك العوائق — فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل مافي استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك ، والله ولي جزائكم بما تخدمون به الوطن والانسانية »

ويستخلص من هذه الرسالة ما يأتي :

أولا — عندنا شبان لايرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى في ميادين العلوم والآداب

ثانيا — يقاسي أولئك الشبان مرارة الخيبة والاخفاق أحيانا ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأماني والأحلام .

ثالثا — بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حسابا عسيرا يصل به إلى الخوف والفزع والاشفاق

رابعا — من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود

أما أنا فلست أخشى خطرا على صاحب هذه الرسالة ، فانها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والاقدام . والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال . وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندي أعرفه به يوم يقدمه جده وسعيه ، وترفعه نفسه إلى بعض مايريد ، لأنه لايصل إلى « كل » مايريد إلا القانعون

بالقليل ، والانسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ . وقديما حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لايرى إلا فى مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرما ، أو مع النساك متبتلا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : إما فى البرية وحشيا ، أو مركبا للملوك .

على أنه من الخير أن تبحث الأسباب التى تقتل رجولة الشباب فى العصر الحاضر وتحبب اليهم الكسل والخمول ، وأهم تلك الأسباب

أولا — شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين ، وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط . وبرهانهم على ذلك أن هناك ناسا ارتفعوا بلا مؤهلات ، وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة والوصولية هى المؤهلات النافعة فى هذا العصر ، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية ، وأنهم يرون فى المعاهد العلمية وفى الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال . فكم من رجل تبوأ منصبا وهو لا يدرك خطره ولا يعرف قيمته ، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والاسفاف ، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار ، وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر فى كل مكان

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال وأهون ما ترمى به الشبان من المآثم هو ما يقررونه فى أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال فى خيال وأن الحزم فى اقتناص الفرص قبل أن تشرد ، وأن الشخصية الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق

ولعل الدنيا لم تفسد يوماً كما فسدت فى هذه الأيام ، فقد استطال الأوغاد ، وأصبح الأحرار يعيشون فى أوطانهم كأنهم غرباء وكثيراً ما نجد الوصولى السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان :

« حضرته عامل راجل » !

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء ، ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو لاينتظر منه إلا كلمة « بيك أفندم » كما كان يقول الأتراك

وأين أين الرئيس الذى يحب فى مرءوسيه إباء النفس ، وقوة الشكيمة ، وصلابة العود ؟

أين أين الرئيس الذى يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد ، فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل ، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والكبرياء ، لأنه لا يسقط المصرى إلا حيث تخذله نفسه ولا يجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مفلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء .

وقد أذكر أني لقيت مرة شابا أعرفه فسألته عن عمله وقد قضى عهد الدراسة العالية فأجاب :

« أتمرغ فى تراب الميرى »

فابتسمت وقلت : لا بأس !

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملا يلحقه بمن يتمرغون فى وحل الميرى لا فى ترابه !

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها ، لأن الشباب فى ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال ، والمرء إن لم يقف على قدميه فى شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأى ، أو تصلح له حال ! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح ورحم الله من قال :

إذا المرء أعيته المروءة يافعا فمطلبها كهلا عليه شديد

ثانيا — غفلة الشبان عن تقدير الحرية ، فان الزاهدين فى الرقى ليسوا إلا قوما ألفوا الاستعباد ، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون في حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة في الحرية أشرف تمثيل فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعاً ذليلا ، يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع .

والعلم هو الذي يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصي المراتب الرفيعة . ولا يطمع في السيادة إلا من يعد نفسه لها إعدادا صحيحا أما الخامل الراضي عن حاله فلا حظ له من الرفعة . ولا نصيب له من الاستقلال . وفي خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله ، فليكن في ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقا آخر ، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود .

ثالثا — اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب في قتل عزائمهم ، فهم ينتظرون أن يكونوا دائما (مسنودين) بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا في ظلال من يملكون الأمور ولكل شاب عذر من حكومته : فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم في زمانه ويأسى على أن لم يولد في عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب ! وقديما قال المتنبي :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون . ونحن لا نريد لشبابنا أن يعتمدوا على الدولة في إنهاضهم من كبواتهم فانه لا خير فيمن يعتمد على سواه ، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء

بأنفسهم ، وأن يكون الفتى قوة كاملة هى فى ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان .

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣١

الغزل فى شعر شوقى

رسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر شوقى كتبها المؤلف فى باريس فى شهر مارس سنة ١٩٣١

— ١ —

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين فى باريس فأعارنى الجزء الثانى من الشوقيات ، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب ، وإنما اقتصرت على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان ، فمن الخير إذن ألا يتكرر ما يكتب ، وإن كان لكل منا مذهبه الخاص

ولأقيد أولا أن شوقى مسئول عن ذلك الشرح الموجز الذى ذيلت به الشوقيات ، فهو فى أغلب الأحيان شرح ضعيف وقد يتعدى الضعف أحيانا إلى الغلط الشنيع . ومن أمثلة ذلك التعليق على قوله :

لو جلوا حسنك أو غنوا به للبيد فى الثمانين صبا

فقد جاء فى الشرح ما نصه : هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذى قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذى ظل يراجع هذا الجزء من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد ؛ فليس هذا البيت من شعر لبيد وإنما هو من قصيدة لأبى محلم الشيبانى - إن لم تخن الذاكرة - والقصيدة برمتها مثبتة فى الجزء الأول من أمالى القالى

***

إن شوقى يعرف رأيى فى شعره ، وقد أكون أول من أنصفه بين النقاد المعاصرين ، فهو إذن خليق بأن يفترض أني لا أتحامل عليه إن قلت إن أضعف الجوانب فى ديوانه هو باب النسيب

لقد عتب على مرة لأنى لم أختر من شعره فى كتاب « مدامع العشاق » غير أربعة أبيات ، ولعله يفهم أن عذرى فى ذلك مقبول لأن شعره فى الغزل أضعف من أن يمس القلوب ، فضلا عن أن يفصح عن مدامع العشاق

إن النسيب فى جملته يرجع إلى عنصرين : الأول وصف ما يجد المحب من لوعة الشوق ، والثانى وصف ما فى المحبوب من الملاحة والجمال ، ويمكن أن يقال إن شعر شوقى خال من أوصاف الوجد المبرح لأنه عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس . فكان يتنقل من حب إلى حب ، ومن حسن إلى حسن ، فلم يقع لذلك فى وقدة الهجر أو أسر الصدود .

ذلك اعتذارنا عنه ، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد ، ولو آثرنا

الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب ودقة الاحساس بحيث تتنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من أسراب الملاح.

إنها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع إلا لمن يحبون فى قصد وفى عفاف ، هى فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف . أما الواقع فهو أن الشاعر المرهف الاحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصباحة ومطالعة الجمال.

الشاعر أشقى الناس بشاعريته ، لأنه أعرفهم بخطر ما تبدع الطبيعة من أسباب الحسن والفتون ، وقد أتيح لشوقى أن يشهد من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه ، ولكنه لم يقل شيئاً عن القلوب التى أشقتها السعادة فى الحب ، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم فى كوثر الوصال.

إنه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون : فحيرة الشاعر اليوم هى حيرة أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد . وهذا الحسن ـ إن لم يلطف الله ـ ماض فى الفتك بلفائف القلوب ، وقد جدت للارواح أزمات جديدة ، ومطامح جديدة ، لم يشق بها الأولون.

فليس من المغالاة فى شىء أن نصارح القراء بأن الغزل فى شعر شوقى وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما فى نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع.

وهذه المؤاخذة توجه إلى الأدب فى جملته ، لأن قراء العربية فى هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم ، وجمدت مشاعرهم ، عن فهم ما فى هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والأذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر فى انحطاط الأدب العربى الحديث . . . وإلا فأين فى مصر الشاعر أو الكاتب الذى استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ؟

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواص ، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام عند تلك الغايات الصغيرة ، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكرى القراء فى حيرة داجية سوداء ، حيث لا يجدون من يترجم عن ظمأ أرواحهم ، وهيام قلوبهم ، وقلق نفوسهم ، وكان الظن بمن أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا إلى الجمهور غذاءه الروحى والعقلى فى صورة أخاذة تلقى شيئاً من النور فى طريق الأرواح الحائرة ، أو تلقى قبساً من الثورة فى أنفس من تغشاهم الخمود

ولعل أفظع رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك ـ فيما أظن ـ أنه يندر فى الشرق أن يكون شىء من الأمر بيد الشباب : فنحن نعيش

فى قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضىء الادراك

***

لنترك هذه الخواطر التى تقض بعض المضاجع ، ولنأخذ فى الكلام عن غزل شوقى :

لاحظت أن شوقى حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه باغفال شىء من شعره القديم ، فتجاور فى ديوانه التليد والطريف ، والغث والسمين ، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا فمن العسير على الشاعر أو الكاتب أن يتناسى شيئا من منظومه أو منثوره ، وكل رجل منا حين يعود إلى آثاره يقع صريع الفتنة والاعجاب ، واكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع أنفسهم : فقد يتفق أن يسوء رأى المرء فى إحدى قصائده أو رسائله ولكنه مع ذلك يضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود !

وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه أن يهبها للنسيان ، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه يتساوى حظهم عنده من البر والاشفاق

وقد أحرق البحترى جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر لابنه من بعده ، وعندى أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض آثاره مراعاة لمصالح الاهل والأقرباء وفى ظنى أن ذلك ما كان يقع

لو قيل للبحترى : أحرق هذه الاهاجى لانها ضعيفة لاتستحق البقاء

وإنما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقى فهو فى رأينا أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الابيات الآتية :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ماخنت رب القنا والمشرفيات

ولاسلوت ولم أهمم ولاخطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى

فليس فى هذه الابيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه أثبتها فى الديوان لأنه قالها ، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على أى حال أمير الكلام !! وإلا فما هو القوام الذى ، وما هى الأعين اللاتى ؟ اللهم إلا أن يريد أن يأتى بشاهد جديد لحذف صلة الموصول!

ثم مامعنى قوله :

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى

وكيف غابت عليه تفاهة كلمة «حاجات» فى مقام التشبيب

ومن الغزل البارع جداً قول شوقى :

ياناعما رقدت جفونه مضناك لاتهدا شجونه

حمل الهوى لك كله إن لم تعنه فمن يعينه

عد منعما أولا تعد أودعت سرك من يصونه

بينى وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونه

الروح ملك يمينه يفديه ما ملكت يمينه

ما البان إلا قده لو تيممت قلبا غصونه

هذه قطعة جميلة، لم يضعف منها إلا قوله :

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونه

لأنه لا يكفى أن يقال : « السحر معيب ، ولكن سحر هذه الجفون لا عيب فيه » والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من أن ينزل إلى توافه المشكلات . فهل يدرى القارىء ماذا أضاف شوقى إلى هذه القطعة الجيدة ؟ لننظر كيف يقول :

ويزين كل يتيمة فمه وتحسبها تزينه

فما معنى هذا ؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللآلىء ، على حين يظن أن اللآلىء تزينها ... وما نظن شوقى يقدر أن هذا معنى جميل . والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن مطير

منعمة الأطراف زانت عقودها بأجمل مما زينتها عقودها

فان هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول : لأن النحور قد تكون أجمل وأروع من نفائس العقود . أما أن تكون الثنايا أجمل من اللالىء التى تزدان بها فذلك خيال مقلوب

ثم مامعنى قوله بعد ذلك

ما العمر إلا ليلة كان الصباح لها جبينه

وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقى إسقاطها من الديوان ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء

وسترى فى الأبحاث الآتية مبلغ ماوصل اليه فى فن النسيب

— ٢ —

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب ، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب : فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام ، وهى بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنى ويرهف إحساسه للتلحين والتطريب ، ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر مالاقبل له باحتماله من التغنى بعواطف قد تكون خمدت فى صدره منذ أزمان . على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الاسفاف وحسب القارىء أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء بالنسيب ، وذلك أغرب ألوان الشذوذ ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هى فى مذكراتى بمصر ، فليعذرنى القارىء إن اكتفيت بالاشاره اليها فى هذا الحديث

وقد سلك شوقى هذا المسلك ، فباب النسيب فى ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة ، فهو فى جملته نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء . وهو فى هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التى لاينبغى أن يشرك

الشاعر بها أحدا من الناس

الجمـال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح ، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه فى غير إشفاق فانه لايغتفر لشوقى وقد درس ميسيه ولامرتين وفرلين أن لايتقى الله فى لغته ويرحمها من ذلك الجدب الموحش الذى ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون فى جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمـال

ومع هذا فلشوقى مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده وسنعود اليها فى الرسـالة الآتية ، ولـكنها لقلتها لا تسمو به إلى منزلة معاصريه فى الأمم الأوربية ، ولاتلحقه بمن أجادوا التشبيب من أسلافه كعمر بن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس وابن زيدون

***

وقد عرض شوقى لتشطير بعض أبيات النسيب ، والتشطير والتخميس من الفنون المستحدثة فى الشعر العربى ، وهو عمل فنى لاأثر فيه للعاطفة وإنما يرجع إلى الذكاء . فلننظر كيف صنع شوقى مثلا فى قول أبى نواس :

ياويح أهلى يرونى بين أعينهم   على الفراش ولايدرون مادائى

والقارىء فى غنى عمن يرشده إلى روعة هذا البيت الجميـل وقد حوله شوقى إلى الصورة الآتية :

ياويح أهلى أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجنب لاهدوء له على الفراش ولا يدرون مادائى

فان هذا التشطير لم يستقم لشوقى إلا بحذف كلمة « يرونى » ووضع كلمة « أبلى » مكانها . ثم عاد فأتى بكلمة « وينظرون » فى البيت الثانى ليستقيم له الشطر الاخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض الشىء حين تدخل شوقى لاتمامه ، وكان قبل ذلك غاية فى الرقة والوضوح

ولشوقى بيت سائر وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس ، وقد أشرت مرة إلى أنه عرض فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية ، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر من الحسان ، وإنما يمثل الساقطات اللائى تنبو عنهن العيون فى الحانات ، وما أظن شوقى ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم إلا إن زعم أنه كان (إيروس) العصر والأوان !

وقد فتن شوقى بالسلاسة التى كانت من نصيب ذلك البيت فأراد أن يضيف إليه بيتا ثانيا لتتم بهما صور العشق فقال :

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فأين هذا من ذاك ؟ ذاك بيت ألقت به السليقة فجاء غاية فى الاستواء ، أما البيت الثانى فهو من آثار التكلف ، لأن الشاعر

توهم أن الصورة تتم به ، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين

فان كان شوقى فى ريب من صدق هـذه الملاحظة فليحدثنا كيف صح له أن يقول بعد ذلك :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء

فان ذلك وقع بالطبع بعد السلام والـكلام وقبل الفراق !

وجاء فى الديوان ما نصه :

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء فى مجلس فذكر أحدهم بيتا للبها زهير وهو :

يقول أناس لو وصفت لنا الهـوى

فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

فقال :

يقول أناس لو وصفت لنـا الهـوى

لعـل الذى لا يعرف الحب يعرف

فقلت لقـــد ذقت الهوى ثم ذقتـه

فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

وكان على شوقى أن يلاحظ أن بيت البها زهير هذا ليس من الجودة بحيث يستحق هذه العناية ، فان من السذاجة أن يتوجه الناس إلى المحب قائلين : نسمع أنك تحب ؛ فهل لك أن تقول لنـا ما طعم الحب وما لونه ؟ وأغرب من هذا وأدخل فى السذاجة أن يعلل شوقى وجاهة السؤال بقوله :

لعل الذى لا يعرف الحب يعــــرف
فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين
أم الأمر لا يخرج عن عبث الألفاظ !

***

وهناك قصيدة صنعها شوقى ليدل بهـا على ذكائه وانقياد النظم إليه ، فقد قال البارودى :

أتغلبنى ذات الدلال على صبرى ؟

ثم سكت . فرأى شوقى أن يكمل البيت هكذا :

إذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية

وقبل نقدهذه القصيدة نسأل شوقى : هل كل مغلوب على صبره فى الحب خليق بالخدر والقناع ؟

لا أظن ! وإلا فهناك قصائد صرح فيهاشوقى بأنه يائس مغلوب !

وإلى القارىء القطعة الآتية :

وليـــل كأن الحشر مطلع فجره ... تراءت دموعى فيه سابقة الفجر
سريت به طيفا إلى من أحبها ... وهل بالسهى فى حلةالسقم من نكر
طرقت حماها بعد ماهب أهلها ... أخوض غمار الظن والنظر الشزر
فـــا راعنى إلا نساء لقيننى ... يبالغن فى زجرى ويسرفن فى نهرى
يقلن لمن أهوى وآنسن ريبـــة ... نرى حالة بين الصبابة والسحر

إليكن جارات الحى عن ملامتى ... وذرن قضاء الله فى خلقه يجرى
وأحرجنى دمعى فلما زجرته ... رددت قلوب العاذلات إلى العذر
فساءلنها ما اسمى فسمت فجئننى ... يقلن أمانا للعذارى من الشعر
فقلت أخاف الله فيكن إننى ... وجدت مقال الهجر يزرى بأن يزرى
أخذت بحظ من هواها وبينها ... ومن يهو يعدل فى الوصال وفى الهجر

هذه أبيات فى غاية الانسجام ، ولأجل هذا أثبتها شوقى فى الديوان ، ولكن مامعناها ؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة ، قاهرية بالطبع ، لان هذا من شعره القديم ، وللقاهريات تقاليد فى الصيانة والعفاف . ومع هذا طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين ، وأحاط به النساء يزجرنه وينهرنه ثم توجه أولئك النساء إلى محبوبته يسألنها ماشأن هذا الزائر ؟ وهنا أجهش الشاعر فى البكاء فخمدت حمية النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوقى ! ولم تكد تلفظ هذا الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان ! وفى هذا الموقف كان الشاعر كريما ، فقد طمأنهن قائلا إنه يخاف فيهن الله !!

إن هذه الصورة المنكرة لاتقع فى حى وضيع إلا موسومة بسقم الذوق ، فكيف صح وقوعها فى مدينة القاهرة قبل

ثلاثين عاما !!

كل هذا لم يكن ، ولكن شوقى أراد أن يتكلم ، فليكن ما أراد لأنه يقول للشعر كن فيكون

وعلى القارىء أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة كانت شمائلهن من هذا الطراز : ولو فى خيال أمير الشعراء !!

— ٣ —

نجوى القلب

شوقى شاعر محسود ، فقد ملأ جميع الأسماع وأشجى كثيراً من القلوب ، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما ، وهى زعامة حقة لايمترى فيها إلا المكابرون . وكم شق خصومه فى هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض إلا كما يصنع المطر فى متين الحصون .

لا تسأل عن السر فى عظمة شوقى ، لأن الشعر فى أكثر الأحيان من النفحات الالهية التى لا تنال بالجد وعرق الجبين ، فليس هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد أفصح عن ذلك أبدع إفصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شانى أنا أسمو إلى نباهة شانه

كان بالسبق والميادين أولى لوجرى الحظ فى سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندى وأذاعوا الجميل من إحسانه
ماالرحيق الذى يذوقون من كر مى وإن عشت طائفا بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى من يد فى صفائه وليانه

وكذلك يجيد شوقى حين يسلم خياله إلى فطرته الجيدة ، ويسف حين يتكلف ويتصنع ، لأنه لا يتقن الصنعة إلا الشعراء المحرومون من هبات الروح

وقد راجعت ما قال شوقى في النسيب فكان أكثر ما شاقنى عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب ، وكلمة الشباب لها فى شعر شوقى وفى حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم إلا من عاشوا كما عاش ، أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب

وشوقى رجل ألقى فى غيابات الماضى أطيب الأحلام والأوهام فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين ، ولكن كاهله لا يزال قويا ولا يزال يقول : هات ما عندك يازمان ! ولا يزال فى ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس .

غير أن شوقى أذكى من ذلك ، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل فى أيامه الخوالى ، وإنما ينقاد الجمال إليه

لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية ، وطبعت اسمه فى صدور الناطقين بالضاد. كل هذا جعل شوقى من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته فى الحب ، وكان لا يعرف الهزائم فى ذلك الميدان — فيارحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر ، ثم كتب عليه أن يشهد فى آخر أيامه وقائع الاخفاق !

وإلى القارىء نجوى شوقى لقلبه وقد تقطعت حبائله فى أودية الجمال:

شيعت أحلامى بقلب باك ... ولممت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشباب ووردِه ... أمشى مكانهما على الأشواك
وبجانبى واه كأن خفوقه ... لما تلفت جهشة المتباكى
شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه ... فاذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أني طويت حبائلى ... من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبى كل غاية لذة ... بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبق منا يا فؤاد بقية ... لفتوة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى ... ونشد شد العصبة الفتاك
واليوم تبعث فى حين تهزنى ... ما يبعث الناقوس فى النساك

وإلى القارىء قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية :

صحا القلب إلا من خمار أمانى ... يجاذبنى فى الغيد رث عنانى
حنانيك قلبى هل أعيد لك الصبا ... وهل للفتى بالمستحيل يدان
تحن إلى ذاك الزمان وطيبه ... وهل أنت إلا من دم وحنان
إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة ... ولم تدكر إلفا فلست جنانى

أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها ... ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مباعد ... وأنت خفوق والحبيب مدان
وأيام لا آلو رهانا مع الهوى ... وأنت فؤادى عند كل رهان
لقد كنت أشكو من خفوقك دائبا ... فولى فيالهفى على الخفقان
سقاك التصابي بعد ماعلك الصبا ... فكيف ترى الكأسين تختلفان
ومازلت فى ريع الشباب وإنما ... يشيب الفتى فى مصر قبل أوان
ولا أكذب البارى، بنى الله هيكلى ... صنيعة إحسان ورق حسان
أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى ... وأعنو إذا اقتاد الجمال عنانى

والفرق بين القطعتين واضح ، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون ، أما الثانية فوسط بين الجيد والردىء لأن الشاعر قالها وهو شاب يتكلف سآمة الشيوخ ليثبت أن الفتى يشيب فى مصر قبل أوان المشيب. والضعف ظاهر فى قوله:

أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها ... ونشرب من صرف الهوى بدنان

وقوله :

وأيام لا آلو رهانا مع الهوى ... وأنت فؤادى عند كل رهان

والفتور ملموس فى قوله :

وأنت خفوق والحبيب مباعد ... وأنت خفوق والحبيب مدان

على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين :

وما فى الأرض أشقى من محب ... ولو وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حال ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا شوقا إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقى

وفى القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض فى عرض نفسية الشاعر ، فهو يحدثنا أولا أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل ، ثم يعود فيذكر أنه لايزال فى ريع الشباب وأن الله بنى هيكله صنيعة إحسان ورق حسان ، فهو فى أول القطعة يندب شبابه ، وهو فى آخرها يتغزل فى نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن الرطيب ! وفى هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لايعنى مايقول

ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة :

أرقت وعادتنى لذكرى أحبتى شجون قيام بالضلوع قعود
ومن يحمل الاشواق يتعب ويختلف
عليه قديم فى الهوى وجديد
لقيت الذى لم يلق قلب من الهوى لك الله ياقلبى أأنت حديد

وهذا شعر لابأس به ولكن مامعنى قوله :

لك الله ياقلبى أأنت حديد ؟

إنا نظن أن هذا التعبير لايخلو من ابتذال

ومن الانصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة القطعة الآتية :

وروض كماشاء المحبون ظله لهم ولأسرار الغرام مديد
تظللنا والطير فى جنباته غصون قيام للنسيم سجود

تميل الى مضنى الغرام وتارة ... يعارضها مضنى الصبا فتحيد
مشى فى حواشيها الأصيل فذهبت ... وماس عليها الحلى وهى تميد
وقامت لديها الطير شتى : فآنس ... بأهل ومفقود الأليف وحيد
وباك ولا دمع وشاك ولا جوى ... وجذلان يشدو فى الربى ويشيد
وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة ... وعريان كاس تزدهيه مهود
غشيناه والأيام تندى شبيبة ... ويقطر منها العيش وهو رغيد
رأت شفقا ينعى النهار مضرجا ... فقلت لها حتى النهار شهيد
فقالت وما بالطير ؟ قلت سكينة ... فما هى مما نبتغى ونصيد
أحل لنا صيدان: يوم الهوى مها ... ويوم تسل المرهفات أسود
يحطم رمح دوننا ومهند ... ويقتلنا لحظ ويأسر جيد
ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا ... ونحن لسلطان الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وإن كنا ننكر عليه البيتين الأخيرين ، لأن شوقى لم يكن يوماً من رجال السيف ، حتى يصطاد المها فى يوم الهوى ويصطاد الاسود فى يوم الجلاد ، وهو قد سرق هذا المعنى من عبدالله بن طاهر إذ يقول :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ... ـل على أننا نذيب الحديدا
وترانا عند الكريهة أحرا ... را وعند الغوانى عبيدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل : لأنه كان من كبار القواد ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجاء ، فى حين أن شوقى حدثنا فى مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان !

الجزل والرقيق

شوقى يؤثر الرقيق على الجزل فى الغزل والنسيب ، ولا عيب فيه إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل إلى النعومة واللين ، وإلى القارىء هذه الأبيات :

ياحسنه بين الحسان فى شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيو ن وما لهن به يدان
ملك الجوانح والفؤا د ففى يديه الخافقان
ومناى منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكي حسنه من لا له فى الحسن ثان
فدعوه يعدل أو يجو ر فإنه ملك العنان
حق الدلال لمن له فى كل جارحة مكان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه « حسن فى شكله » من التعابير العامية ، ولكن لا بأس فلعل ذلك الظبي كان يلعب في الحارة حينذاك

وعبارة «من لا له» عبارة ثقيلة كان ينبغى نفيها عن هذا الغزل الرقيق

وزكاة الحسن ماموضعها هنا؟ إن الشاعر يجارى بعض المتقدمين فى هذا المعنى ، وكان ينبغى أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء

ولشوقى قطعة رقيقة قالها فى بعض الناس ووهبها للغناء ، وهى

منك ياهاجر دائى وبـكفيك دوائى
يامنى روحى ودنيا ى وسؤلى ورجائى
أنت إن شئت نعيمى وإذا شئت شقائى
ليس من عمرى يوم لا ترى فيه لقائى
وحياتي فى التدانى ومماتى فى التنائى
نم على نسيان سهدى فيك واضحك من بكائى
كل ما ترضاه يامولا ى يرضاه ولائى
وكما تعلم حبى وكما تدرى وفائى
فيك يا راحة روحى طال بالواشى عنائى
وتواريت بدمعى من عيون الرقباء
أنا أهواك ولا أر ضى الهوى من شركائى
غرت حتى لترى أر ضى غيرى من سمائى
ليتنى كنت رداء لك أو كنت ردائى
ليتنى ماؤك فى الغلـة أو ليتك مائى

وهذا شعر مقبول ، ولكن هل يستطيع شوقى أن يدلنا على بيت واحد فيه شيء من الابداع؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعاني التى رددها مئات الشعراء؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهى التى يقول فيها :

وقالوا فى البديل رضا وروح لقد رمت البديل فرمت صعبا
وراجعت الرشاد عساى أسلو فما بالى مع السلوان أصبى

اذا ما الكأس لم تذهب هموى فقد تبت يد الساقى وتبا
على اني أعف من احتساها وأكرم من عذارى الدير شربا

وهى قصيدة أكثرها مستجاد ، وإنما نقلنا هذه الابيات لنسأل شوقى عن معنى قوله :

اذا ما الكأس لم تذهب هموى فقد تبت يد الساقى وتبا

لأننا لانفهم موجب هذه الدعوة البشعة فى الشطر الأخير . وماذنب الساقي إذا تحجرت نفس الشارب فى حضرة الصهباء ؟ وقد نفهم أن يكون شوقى أعف من احتسى الراح ، إن كانت تبق على عفاف ، ولكننا لاندرى كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا !! لقد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا ، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات ، فان الراح لا تثير معاني الحنان إلا فى النفوس الضعاف !

ثم ماقيمة قوله فى كلمة أخرى :

حببتك ذات الخال ، والحب حالة إذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا
وإنك دنيا القلب مهما غدرته أني لك مملوءاً من الوجد وافياً
وبين الهوى والعذل للقلب موقف كحالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة كخصرك بين النهد والردف واهيا

وياليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان

وما قيمة قوله أيضاً يستعطف محبوبته :

فحسب خدى من عيني ماشربا فمثل ما قد جرى لم تلق عينان

وأين وجه الحسن فى قوله :

يامن هجرت إلى الاوطان رؤيتها ... فرحت أشوق مشتاق لأوطان
أتذكرين حنينى فى الزمان لها ... وسكبى الدمع من تذكارها قاني
وغبطى الطير ألقاه أصيح به ... ليت الكريم الذى أعطاك أعطاني

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارىء بما فى باب النسيب من مواطن القوة والضعف ، أردنا بها توجيه الانظار الى الجزء الثانى من الشوقيات ، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل النيل الذى يقول :

وقلت له صبراً فكل أخى هوى ... على يد من يهوى غداً سيتوب

ليالى الاعتقال

حضرة الأخ أنيس افندى ميخائيل

وصل خطابك البديع ،بعد عشرين يوما قضاها تحت أثقال الرقابة ولم يصلنى قبله فى معتقل (سيدى بشر) غير خطاب الأخ الشيخ عبد المجيد زهران ، فما أوفاه ياصديق وما أوفاك !

سأضرب صفحا عن الدمعة التى سكبتها على القرطاس ، لأن مثلى لا يبكى له ولا يبكى عليه ، وإنما خلقت لأكون مثلا فى الشمم والاباء ولو كان بى حب الدعة والطمأنينة لما مكثت فى المعتقل هذه الشهور الطوال فقد فكر القوم فى مساومتى لأول لحظة وظنت فيها ثكنة

قصر النيل . ولكنى أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد . وأقسم لوسلم المصريون جميعاً وخرج مصطفى كامل من قبره فصافح الانجليز لما كان فى ذلك مايزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء ، وأعيذك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر إن تم ونحن أحياء ينسينا مافعلوا بنا وبأهلينا منذ كان الاحتلال !

أترك ذلك . وأحدثك عما يجول بصدرى فى هذه الظلمات . أنا حزين يا أنيس ! وكيف لا أحزن وفى المعتقلين أنفسهم أنصار لمشروع ملنر الذى يعرض الآن بين التصفيق والهتاف ! ياويلتاه ! حتى المعتقلين المعذبين يصدقون بأن انجلترا منحتهم الاستقلال ! ! متى تنكشف هذه الغمة فأخرج من بين هذه الاسلاك لأساعد الحزب الوطنى فى الغارة الشعواء التى شنها على أولئك الشياطين الذين مكنتهم الليالى من ناصية هذا الشعب الوديع !

ليست انجلترا هى العدو الوحيد للامة المصرية ؛ بل هناك عدو آخر لايزال يبطش بالأمة غير وان ولا راحم . ألا وهو الجهل . هذا هو العدو اللدود الذى تستعين به انجلترا لاغتصاب وادى النيل ولولاه لما رحب المرحبون بأعضاء الوفد حين جاءوا لعرض مشروع ملنر . بل لولاه لحقت على هؤلاء كلمة العذاب ! وسأعرف ما اصنع حين أعود إلى القاهرة ولو بعد حين . سأعرف كيف أحارب الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رءوس من يستغلون جهل

الأمة فينالون به ما لهم من سيء الاغراض ؛ ومنكر الشهوات ، والله بصير بمايعملون

تسألنى عن ليالى الاعتقال ، وأجيبك بأنها ليال سود لافرق بين أنصافها والسرار ، ويكفى أن أذكرلك أن هذه الليلة ليلة العيد ، ومنذ لحظة كان الاستاذ الشيخ عبد الباقى سرور يبتسم ويقول : لقد استرحت هذه الليلة من أولادى ، فما يفك عمامتى أحد ولايضحك من صلاتي إنسان .

وكان الشيخ محمد يوسف يرفأ قميصه وهو ينشد قول ابن الاحنف :

رحمتا للغريب بالبلد النا　　زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا　　بالعيش من بعده وما انتفعا

وكان الشيخ شافعى البنا يلاعب الشمعة وهو يتغنى بقول المتنبى :

عيد بأية حال عدت ياعيد　　بمامضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهمو　　فليت دونك بيدا دونها بيد

أما أنا فكنت أترنم بقولى :

ليالى النيل واللذات ذاهبة　　وجدى عليكن أشجانى فأضنانى
لويرجع الدهر لى منكن واحدة　　فى سنتريس ويدنى بعض خلانى
إذاً تبين دهرى كيف يرحمنى　　من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

وبمناسبة سنتريس أذكر أنى أرسلت خطابا للاخ الشيخ احمد الدكرورى أصف به شوقى إلى مغانى ذلك البلد الجميل ،أين أنا من

سنتريس ؟ وأين منى سنتريس ؟

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد
فاذا تمثــــل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

حسبك هـذا ياأنيس ، ولاتنس أن تزور الشيخ عبـد العزيز صقر ، وأن تـكاتب الأخ العزيز محمد افندى محمود حسين ، فاما الشيخ على مبارك فسأعرف كيف أناقشه الحساب !

وأعود الى الثورة الخطيرة التى تشب فى جوانحى كلما فـكرت فيما يعمل الانجليز لقهر الأمة المصرية . لبيك يامصر ! لن تموتى ونحن أحيـــــاء !

(ملحوظة) : لاتذكر لأحد كيف وصلك هذا الخطاب فتشتد الرقابة على المعتقلين المعذبين !

مارس سنة ١٩٢٠

لا تسبوا الدهر !

لقيني أحد أصدقائى فى الأسبوع الفائت وبادرني بقوله : لقد أغضبت الزمخشرى حين فسرت قوله تعـالى (وفى أنفسـكم أفـلا تبصرون) وقد عزمت بحول الله وقوته أن أغضب الزمخشرى مرة ثانية بتأويل قوله عليه السلام : « لاتسبوا الدهر فان الدهر هو الله » فليس معنى هذا الحديث أن الدهر اسم من أسماء الله ، كما توهم ذلك

كثير من الفقهاء : ولـكن معناه أن الدهر الذى تسبونه — وهو نظام الـكون الذى تحرمون كل شىء حين تخرجون عليه — هو عند الله كاسمه واجب التقديس !!

وسب الدهر عادة قديمة : فرد لها رواة الأدب بابا سموه (شكوى الزمان) وقد تنبه بعض الشعراء إلى هذه الضلالة الفاشية فرثى لأصحابها بقوله :

كل من لاقيت يشكو دهره ليت شعرى هـذه الدنيا لمن؟

وكأن رسول الله رأى جموع الكسالى الذين يحسبون أنفسهم خلقاء بأن يملكوا ناصية العالم ، ولا يعملون شيئاً ، حتى إذا حاقت بهم عواقب كسلهم ، بسطوا ألسنتهم فى سب الدهر ، وشكوى الزمان ، فأراد عليه السلام أن ينهاهم عن هذ الخله النكراء بقوله : « لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله » !

لقد ملأتم الدنيا صراخا وعويلا : فهـــل أغنى الصراخ والعويل ؟ أفسدتم على النـاس فطرهم باذاعة الآراء السقيمة والمبادىء المهلكة ؛ فمتى تفتحون أعينكم لتروا نظام الـكون كما خلقه الله ، لا كما صورته لـكم شهواتكم ، وأهواؤكم !! نحن صرعى خطلكم ، وقتلى جهلكم ، فلاعفا الله عنكم ، ولا عاد زمن كنتم فيه من المكرمين !!

شكوى عليل

عزيزتى فتحيه

لاتطيق يمناى الكتابة إلا بألم شديد ! وذلك لو تعلمين سبب حرماني من الكتابة إليك منذحين ! وكم تمنيت كلما أدرت اللفائف على تلك اليد الجريحة ، لوأن يمناك الجميلة هى التى تتولى برفقها ضمد ذلك الجرح البليغ ! ولكن هيهات يافتحية ، ما كل مأمول ينال ، وكم أنشدت كلما أدنى الخيال محياك الجميل :

إن عينى تعودت كحل هند جمعت كفها مع الرفق لينا

إى والله ! فلو رأيتك الآن لفزعت إلى صدرك ، كما يفزع الضحيان إلى الظل الظليل ! وما كان هذا الجرح بباق بعد قدومك إلا كما يبقى الحزن بعد قدوم الرحيق ! ولقد كنت خليقاً أن أطرب لذكراك كلما ألح على المرض ، فاعتصمت بذكرى أيامنا الخوالى ، ولكنى مافكرت فيك إلا امتلأت حقدا على الدهر ، فسقطت صريع جرحين : جرح فى اليد ، وجرح فى الفؤاد ! فياعجبا كيف صارت ذكراك مثاراً للهم ، وكانت كالواحة فى الوادى الجديب !!

الآن — وقد انتصف الليل ، ونامت عن شكواى العيون — أتسمع لعل فتحية تطرق الباب ثم أتبين أنى أرجو مالايكون ، وأترقب المستحيل . وهاأنذا أعود إلى مساهرة الأنين

سبحان من لوشاء سوى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابي

سبتمبر سنة ١٩٢١

ارواح الكتاب

عزيزتى فتحية :

وصل إلى خطابك السادس ، وكنت جديرا بشكر يمناك الجميلة على ماصنعت أناملها الحسان. ولكنى لاأزال أشعر بالوحشة ،كأن لم تكتبى إلى حرفا ، ولم يصلنى منك كتاب ! غير أنى لاأنكر أن قلبى يخفق فى كل صباح ، كلما قرب قدوم البريد ! ولقد صرت أحسب حملة الرسائل شرذمة من الملائكة ، ينقلون السلام من قلب الى قلب ، ويصلون بين النفس والنفس ، حتى لقد هممت أن أسبح بحمدهم فى أوقات التوزيع ، كما يسبح فريق من الناس للشمس عند الشروق !!

أجل ! لا أزال أشكو الهجر والصدود ! فاذا كنت تحسبين أن فى هذه الرسائل برءا لقلبى من جواه ، وجسمى من ضناه ، أو اذا كنت تظنين أن فى إرسالها إلى إمتاعا لنفسى التى تكلف بالحسن وتولع بالجمال ، أو إذا كنت تأملين أداء مايفرض الحب على فتاة تعلم أن حياة عاشقها أثر من آثار يديها ، كما كانت حياة الزهر أثرا لما للشمس من ضياء : اذا كنت تنتظرين شيئا من ذلك فأنت واهمة يافتحية ! نعم واهمة وإن ألم فؤادك الذى يفيض بالاحساس - إن الرسائل التى تكتبينها إلى ليست من إملاء قلبك الشفيق

ولكنها كلمات منقولة من الروايات التى يتراسل فيها المحبون ، على أن الرسائل التى تكتب فى القصص على هـذا النحو لاتمثل أفئدة الأوانس ، لأن كتابها رجال يتمثلون عواطف النساء ! فهم مقلدون وحاكون ! وإنه لمن المخجل أن يملأ عالم الأدب بتقليد التقليد! فأنت تمثلت عواطف رجل كان تمثل عواطف امرأة ! وجدير بخطاب هو تمثيل التمثيل أن ينال من قلب القارىء ماينال الحديث المعاد .

لم أكـد أقرأ خطابك الأول حتى بعثت اليك بزجاجة من العطر كتب عليها تاجرها الخاص (احذروا من التقليد) وكنت رجوت أن لايفوتك النظر فى هذه النصيحة الثمينة ! ولكن خاب الرجاء ، وتوالت رسائلك على هـذا النمط الذى أشفق على أصحابه أن يموتوا وهم أحياء ، وإنهم لميتون !

ستقولين عاشق لايحسن الخطاب ، وإنى لـكذلك فقلما يظرف الشيوخ ، ولكنك ستعلمين الآن أنى لم أطع غير داعى الاخلاص . ألا ترين يافتحية أنى كثيرا ماأتحين الفرص لأحدثك وأنت غافلة ، وأنظر اليك من حيث لاتشعرين ، طمعاً فى أن أظفر منك بلفتة لم يشنها التصنع ، أو خطرة لم يفسدها التقليد ؟ أتحسبين أنه لو أقبلت على فتاة ملء العين والقلب كان فى مقدور الجمال أن يزحزح هواك من قلبى حتى تحل منه مكانا كان قبلك غير مأهول ؟ وهل ترين أن ذلك لوصح - على سبيل الفرض والتقدير - كنت أقدر على التفوه بكلمة الاخلاص والفناء فى الحبيب ؟ وإذا كان محالا أنه

أفتح ذراعى لفتـاة غيرك وهى تقبل على وتصدف عن سواى فكيف أطرب من كلمات تقدمها معشوقة إلى عاشق ، من حيث لايصح لفتاك المدله أن يسمع لغير مايجرى على شفتيك من حديث ؟ أم كيف أعتد بخطاب وضعه رجل على لسان امرأة ، فكان غاية فى المسخ والتشويه ؟

لم يرقنى من تلك الرسائل إلا مافيها من الأغلاط الاملائية لأنها تمثلك وقد حفظت بعض القطع المختارة فبدا لك أن ترسلى شيئا منها إلى محبك المسكين ، ظنا منك أنه يسكن إلى الكلام الجزل ، ويخلد إلى القول الرصين ، وقد فاتك أن تذكرى أنى حفظت فى عهد الحداثة أكثر ما كتب الحريرى ، والخوارزمى ، والبديع ، ومن اليهم من فحول الأدب وأعلام البيان ، وأنى وإن نسيت أكثر ما حفظت لاأزال أملك من آثارهم مـايغنينى عن النظر فى أكثر المخطوطات الجديدة التى تقترب فى مبناها من تلك السبائك التى تعز على من رامها وتطول . فما كان أغنانى إذا عن . . !!

إن هناك فرقا بين عاطفة الحب وبين الحساسة الفنية ، فانا أنعم برسائلك من ناحية غير ناحية الصبابة . ولست أناجيك حين أقرؤها لأنك لم تصورى بهـا قلبك وهو يفيض حنانا على محبك الذى يعيش فى أهله كالغريب ! ولولا أنك كتبتها بخطك الذى يسحرنى خلوصه من شوائب التنميق ، وأفضت عليها عبقا من روحك

حين الاختيار ؛ ولولا أنها منك يافتحية ، لعددتها من سقط المتاع !!
لأني لا أطرب للآداب والفنون ، إلا من حيث هي وسائل إلى
القلوب الصوادف ، وقد منحتني قلبك والحمد لله والحب ! فماالذي
حال بينك وبين إرساله إلى فى ثنايا الخطاب ؟ أتذكرين الكلمة البديعة
التى وصلتنى منك فى العام السالف ؟ أنا أذكرها لك الآن لتعلمى أنى
أعشق الروح قبل أن أعشق مايصور الروح ، تلك هى قولك فى
حلو العتاب (والدى واخد على خاطره من سيادتكم) وكذلك فلتعلمى
أن اللغة الفصيحة لاتحلو منك إلا بعد أن تتذوقى الآداب . وبهذه
المناسبة أرجو أن لاتكتبي إلى ثانية باللغة الفرنسوية لأنى لم أطمع
بعد فى أن أسمع منك رجع الحمائم في أبراج باريس ! وكم تمنيت أن
تدرك الفتيات المصريات سر اللغة العربية فيسمع منهن المصريون
ماكان يسمعه توبة من ليلى الأخيلية ، وما كانت تدخل به ولادة
على فؤاد ابن زيدون

عفا الله عنك يافتحية فقد أخطأت كما يخطىء بعض الناس .
وإني لأرجو أن لايكون النهوض فرديا فى مصر على حين أصبح
خلقا عاما فى كثير من الامصار والممالك ، فان عدت إلى التقليد بعد
مبعث الابداع فسيطول اللوم والتأنيب . أما الآن فلك من غفلة
الجمهور شفيع ، والسلام

اكتوبر سنة ١٩١٨

حديث الحب

— ١ —

كتبت الآنسة الادبية حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله الحب) وقد أنحت فيها على الحب والمحبين . قالت فى أثنائها عن نفسها :

«لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» ثم قالت : «الحب عدو لدود للانسان . فيجب أن يبعد عن القلوب ، ويجب أن تعيش القلوب فى جو غير جو الحب»

(. . . . تباعدوا عن الحب)

وقد رأيت أن أجيبها عن كلمتها تلك بهذه الكلمة الصغيرة.قلت:

تلوم حياة على العاشقين رويدا ورفقا بنا ياحياتى
جهلت الغرام فلمت المحب هنيئاً لعينيك فى الناعسات

أليس كذلك أيها الاستاذ زكى مبارك ؟ ؟ اليك يساق الحديث ، والسلام

(السكرية) (شاعر)

(١) كتبت هذه الرسائل فى أوائل سنة ١٩٢٢

— ٢ —

فى مصر شاعر كبير ، وافر الأدب ، كثير الحياء ، يحدثك وكأنه يستفيد منك فيملى عليك مايبهرك من آياته البينات ، وما زلت أذكر كلمة صديقى الأستاذ الشيخ سليمان نوار وقد حادث هذا الشاعر الجليل منذ ثمان سنين ، إذ قال لى بعد هذه المحادثة: انك لاتدرى أتعده من الشعراء ، أم تعده من علماء الأدب ، فتذكرت إذ ذاك قول القدماء فى الاصمعى : إنه أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء

ولهذا الشاعر طابع خاص فى النسيب ، يكاد يتمثل فى قوله :

أحس فى القلب وقدآ   يارب لاكان حبا

وقد اخترت هذا البيت لقربه من كلمته فى حوار الآنسة حياة فهمى :

تلوم حياة على العاشقين   رويدا ورفقا بنا ياحياتى
جهلت الغرام فلمت المحب   هنيئا لعينيك فى الناعسات

ولهذا الشاعر المقيم (بالسكرية) فضل الاشادة بكاتب هذه السطور ، فقد دعانى الى حساب الآنسة حياة ، وهو يعلم كيف عجزت عن حساب الآنسة منيرة ، وإنى بهذا العجز لمختال فخور !!

يرى سيدى الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب فلامت المحبين ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب ، لأن المرأة كالسياسى سواء بسواء يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتبون ، فاذا قال السياسى (لا) فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا

قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) واذا قالت المرأة (لاأحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت انها (كارهة) فاعلم انها(راضية)فان كنت فى ريب من ذلك ياصديقى الاديب فانى أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك فى جريدة الافكار سنة ١٩١٩

عهد السياسة كاذب   لله درك ياسجاح

وقد قال (تاسو) الشاعر الايطالى المعروف : إن المرأة تفر وتود أن تلحق وهى فارة ، وتأبى وتود فى إبائها أن تسرق ، وتناضل وترغب أن يظفر بها فى النضال ! فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم » معناه ان الحب صيرها باكية العين دامية الفؤاد !! وقولها (الحب عدو لدود للانسان ، فيجب أن يبعد عن القلوب) معناه : الحب مادة الحياة ، فيجب أن تزود به القلوب وقولها تباعدوا عن الحب معناه : أقبلوا على الحب ، بأسماعكم ، وابصاركم وقلوبكم أيها الشباب !

هذا ياصديقى ماتريده الآنسة حياة فهمى . فهى حين تقول « لعن الله الحب » انما تريد « حيا الله الحب » !

ولا يفوتنى قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للانسة حياة هذا السؤال : انت تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعة !) ولو انى سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاما لنجوت من الحب ، ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكنى يامولاتي لسوء الحظ قد أحببت ، وقد ضربت بمحبتى الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب

على يدك الطاهرة ، جعل الله فى يمناك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك أن تصفى لى طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن أسماء الحب الضلال ؟؟

أنا فى انتظار الجواب !

ملحوظه ـ أرجو أن تحترس الآنسة حياة ، وهى تكتب انواع العقاقير من أن تنهانى عن التطلع إلى العيون والخدود والثغور والنحور والنهود ، فانه لاسبيل إلى مثل هذا المتاب ! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل !!

— ٣ —

رغب الأديب الكبير النابه والكاتب الفنان اللبق الأستاذ زكى مبارك فى كلمته الى الكاتبة الأديبة الآنسة «حياة» أن تصف له دواء للسلوة عن الحب . فقد اعتزم الأبلال منه فيما يقول . بعد أن مست فيه العيون وتوزعت لبه الغيد . بيد أنه اشترط عليها فيما استوصفها إياه من الوصفات والعقاقير الاتحميه بواعث الشوق ولاتحجر عليه أسباب الهوى ودواعى الشجن فقال «أرجوأن تحترس الآنسة حياة وهى تكتب أنواع العقاقيرمن أن تنهانى عن التطلع الى العيون والخدود والثغور والنحور والنهود : فانه لاسبيل الى مثل هذا المتاب . وانما أريد أن اسلو وأنا أعبث بأفنان

الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل »

فكان كمن يتقى الداء بالداء ويستكف النار بالحلفاء . وأكبر الظن أن تلك الوصفات وهذه العقاقير لا تصاب فى « صيدلية » آنسة خفرة حيية مثل الآنسة حياة !

من أجل ذلك نتشهى على صديقنا النبيل أن يتقبل منا أن نستطب لدائه عنها ، ونصف له الدواء ، نحن لا هى . أجل إنه لعزيز علينا أن يرى ذلك الجفن الغضيض بالاطراق ، ويندى ذلك الجبين الوضاح بالخفر ويضرج ذلك الخد بالحياء ، فليأذن لى فى أن أنشده قولى

تناهب لبك سود العيو ... ن وقسمت فى كل نهد ونحر

دواؤك عند مراض اللحا ... ظ ولا يبطل السحر الا بسحر

ذلك دواؤك الذى يطيب لك ويقر بعينك تناوله . ولا ندعو لك الله بالشفاء ، من ذلك الداء ، وإن أبيت إلا جفوة للحب ، وعربدة على من تحب ، فطالما سمعناك تنشد مثل قول الشاعر :

أعز الله أنصار العيون ... وخلد ملك هاتيك الجفون

ودام لها على ضعفى اقتدار ... وإن هى أفسدت عقلى ودينى

وبعد فهنيئاً لك تلك السلوة . وندعو الله لصاحبتك سالبة لبك . بل ندعو عليك لا لك بمثل ماقلته أنا لشبيهتها آنفا من كلمة :

لا شفى الله منك جفنا مريضا ... وشفى من جراح جفنيك مرضى ،

آمين آمين . والسلام عليك

حسن القاياتي

كيف عرفت فقيد اللغة والادب
الشيخ سيد المرصفى

كلمة رثاء ـ كيف رأيت الشيخ المرصفي لاول مرة ـ كيف كان يحاور الطلبة ـ فضله على كاتب هذه الرسالة ـ كيف نشأ وكيف تعلم ـ تفرده بالتعمق فى فهم اللغة والادب ـ ورأيه فى قدم العالم ـ كيف ثارت فى درسه مسألة القبر النبوى ـ حقده على مشايخ الازهر ـ ايمانه بجلال القرآن واحترامه للرسول ـ رأيه فى محمد هلال ـ موقفه فى مسألة الشيخ على عبد الرازق ـ كيف ثار عليه الدكتور طه حسين ـ اشتراكه فى الثورة العرابية ورأيه فى تضامن المصريين ـ حبه للمال وسخريته من السخاء ـ رأيه فى الحجاج ـ كيف أفنى بصره تحت ضوء المصباح

باريس فى ٧ مارس سنة ١٩٣١

كنا فى ساعة أنس، وكان الرفاق يتحدثون فى صفاء، فيلقون الكلام على عواهنه ذات اليمين وذات الشمال، وجرى فى المجلس تدريس الادب فى المعاهد المصرية، فانطلق المحدثون يسلقون مدرسى الأدب بألسنة حداد. فقلت: كيف غاب عنكم أيها الرفاق ان تذكروا دروس الشيخ المرصفى فى الازهر الشريف؟ فقال قائل منهم: أتريد الشيخ سيد المرصفى الذى مات منذ أسابيع؟

ـ مات منذ أسابيع؟ وكيف؟ لعله مرصفى آخر أيها الرفيق!

ـ المرصفي الذي نعته جريدة الاهرام و جريدة الشورى هو مؤلف أسرار الحماسة وشرح الكامل ، فهل هو صاحبك الذي تريد؟

ثم كانت لحظة دارت فيها الأرض ، ومادت السماء ، وانطلق الرفاق في حديثهم لا يلوون على شيء وظللت في حزن صامت عميق هو أشجى وأوجع من البكاء والنحيب

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

مات الشيخ المرصفي دون أن أبلل أكفانه بدموعي ، ودون أن أحمل نعشه إلى مقره الاخير

فيا أيها الرجل الذي عرفت بفضله أسرار اللغة العربية واستطعت بفضله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام أيها الرجل ، أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية ، ولا يزاحمك في قلبي إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان الشيخ محمد المهدي الذي خلانا وراح مبكيا عليه منذ سنين

لست وحدي تلميذك أيها الشيخ الجليل ؛ فهناك مئات انتفعوا بعلمك وأدبك ، ولكنني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك في حرارة دونها بكاء الأطفال ، وكاد نعيك يقض مضجعه في هدآت الليل وينسيه معاني الحياة في مدينة الحياة

***

في سنة ١٩١٣ رأيت في الازهر رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، لا تفصح سيماه عن شيء ، وحوله عشرة من الطلاب ، وهو ينشد بصوت شجي حنون :

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لازال ريشك ناعما ولازلت في خضراء جار نميرها

فجلست أستمع لانشاده ، وما هي إلا لحظة حتى تبينت أن الذي يحرم من دروس ذلك الرجل لايخرج من الأزهر إلا بصفقة المغبون . ثم أخذت أواظب على تلك الدروس في حماسة وإعجاب وكانت عادة الرجل أن يلقي الاسئلة على الطلبة في تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستنبطون الجواب ، وبعد يومين من اتصالي بدرسه جاءت كلمة ابن عباس (ماعصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله : أهذه مثلبة أم منقبة ؟ فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة ، وأجبت وحدي بأنها منقبة . فقال : وكيف ؟ فقلت يريد ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب مايفعل الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال !

فقال الشيخ رحمه الله في حماسة شديدة (إيه ياعروس الأدب !) وكانت أول كلمة حببت إلى قلبي دراسة الآداب .

كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت أبكر إلى درسه لأقرب

منه . وكنت أكتب كل ماينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسا هى اليوم أنفس ماأملك من ذكريات الأزهر الشريف . وكان الشيخ تعود أن يرانى أمامه ، فجئت يوما متأخرا ، ورفض الطلبة أن يفسحوا لى المجال ، فقال الشيخ :(أين زكى)فأجبت من بعد : هأنذا يامولاى ! فقال الشيخ رحمه الله : (وسعوا له وسعوا له لعله ينفع) !

فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما أكتب ولو مرة واحدة فليذكر أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تشجيع الشيخ سيد المرصفى طيب الله ثراه . وإنى لأذكر أنه كان يلقى درسا فى مسجد السلطان برقوق ، ثم حضر الشيخ على الزنكلونى حفظه الله فقال الشيخ : إنه ليحزننى ياشيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها ، وإنى لأخشى أن يضيع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين !

هذه أشياء لاتقال ، ولكن لها دلالتها على رفق ذلك الرجل ـ كان ـ بتلامذته ، وعطفه عليهم ، وتشجيعه إياهم ، فليس ذكرها من الزهو فى شىء ، وقد يكون فيها تذكرة لبعض الأساتذة الذين يشيحون بوجوههم عن تلامذتهم ولايعرفون أن التلميذ ينتظر من أستاذه ماينتظر الابن من أبيه ، وأن كلمة واحدة قد تنقل الطالب من حال إلى حال : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى ، فكنت

أحضر جميع دروسه وأصاحبه فى الطريق ، وأمضى إلى بيته فاطلع على مالديه من مكنون الذخائر الادبية واللغوية وأنشده شعرى فيقومه ويصلح منه فى رفق كثير .

وجاءت أيام شغلت فيها عنه ، فكتب إلى فى سنة ١٩٢٨ يقول « لقد شغلتك الشواغل كما شغلت ولدنا الدكتور طه حسين فقاعدت أراه ولا أراك » فمضيت اليه أزوره فوجدته قعيد بيته وقد أضناه المرض وهو بالرغم من قسوة الهرم ماض فى تصحيح شرح الكامل فسألنى رحمه الله عما شغلنى عنه ، فاعتذرت بدروسى فى الجامعة المصرية فقال : كم درسا تلقى فى الأسبوع ؟ فاجبت : عشرة ! فقال : أنتم إذاً فعلة لا أساتذة ! ولماذا إذن تقولون جامعة وتشغلون بكم الناس !

وتلك كانت آخر مرة رأيت فيها ذلك الأستاذ الجليل

***

ولكن كيف نشأ الشيخ سيد المرصفى وكيف تعلم ؟ وكيف وصل إلى ذلك المركز الخطير ؟

المدهش حقا هو أن نرى ذلك الرجل يصل إلى تلك القمة العالية فى فهم اللغة والأدب بدون أستاذ . وقد يقال : إن صيت الشيخ حسين المرصفى بلديه هو الذى أوحى اليه فكرة التعمق فى فى الدراسات اللغوية . ولكن الشيخ حسين المرصفى من طراز آخر ، وليس بين الرجلين صلة ظاهرة من الناحية العقلية . والذى

يقرأ كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى لايرى فيه إلا مجموعة من معارف المتقدمين ، نقل أكثرها بلاتصرف عن كتاب الصناعتين

يضاف إلى ذلك أن الشيخ سيد نشأ فقيرا معدما ، وكان الازهر حين اتصل به لا يعرف ما اللغة ، ولا يدرى ماالادب ، وكان المتأدبون يعيشون بين أهله غرباء

والشيخ سيد حين دخل الأزهر عاش أزهريا صميما لأول عهده ، فكان يحفظ المتون ، ويراجع الشروح والحواشى والتقريرات . وكان يقع له أن يحدثنا فى درسه عن الساعات الطويلة التى كان يقضيها فى حضرة الشيخ الشربينى ، وبلغ به الأمر مرة أن لعن علماء الازهر أجمعين فى إحدى المناسبات ، فتأفف بعض الطلاب ، فقال الشيخ :

« أنا مالى ، أنا أفكر فيكم ، أناخلصت ، أنا خلصت »

وكنت فى تلك اللحظة أتامل وجه الشيخ وأرقب تغير أساريره ، فرأيته يقول فى صوت خافت وقد واجه صفحات الأمالى

« أنا خلصت ! ولكن كيف ؟ بعد ماضيعت شبابي فيما لا يفيد من علوم هؤلاء الناس ! »

فليت شعرى كيف استطاع الشيخ سيد أن يخلص من الدراسات الأزهرية ، ويفرغ لدراسة اللغة والأدب ، بحيث أمكنه أن يكون نسيج وحده فى هذا الباب ؟

وهنا لانجد بدا من أن نصارح القراء بأن الشيخ سيد المرصفى عاش وحيد زمانه فى مصر والشرق نحو ثلاثين عاما كان هو الحجة البالغة فى فهم اللغة والأدب والقرآن ، وكان لايستطيع إنسان مهما كابر أن يزعم أنه يقارب الشيخ المرصفى فى فهم النصوص القديمة ، وحسب القراء أن يذكروا أنه هو الرجل الفذ الذى تفرد بدرس الأراجيز ، ونسخها بخطه وشرحها شرحا وافيا لازيادة بعده لمستزيد ، فى عصر قل فيه من يستطيع أن يواجه رؤبة أو العجاج

وهذا الذى أقوله لا مبالغة فيه ، وهو رأى المنصفين من الذين تلقوا عن الشيخ المرصفى أو صاحبوه ، وفى ذلك مايضاعف الحيرة لمن يريد أن يعرف كيف انقطع ذلك الرجل لدراسة اللغة والأدب فى عهد كان الانقطاع فيه إلى الأدب من أمارات الفلاكة والجنون

وهل يستطيع القراء أن يدلونا كيف كان يمكن رجلا أزهريا فقيراً معدماً أن يصل بجهده إلى مقارعة الكسائى وسيبويه وابن الأعرابى والزمخشرى ؟ وكيف أمكنه أن يتفرد بتلك القوة نحو ثلاثين عاماً ؟

لقد فكرت كثيرا فى الظروف التى كونت الشيخ سيد المرصفى ثم انتهيت إلى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

***

كان الشيخ المرصفي غريبا بين الأزهريين لا يحب أحداً ولا يحبه أحد ، وقدمرت أيام كان يتقرب فيها إلى ربه بلعن علماء الأزهر ولذلك أسباب نبدى بعضها فى هذا الحديث :

جرت فى درسه مرة عبارة : (العالم قديم) فقال : إى والله ! العالم قديم

وهنا نقرر أن الشيخ المرصفي كان له إيمان خاص ، وكان لا يتورع أن يذكر أن أكثر الناس على ضلال ، فلم يكد الأزهريون يتسامعون بأنه يقول بقدم العالم وأنه يعتقد غير ما يعتقدون حتى انطلقت ألسنتهم بذمه وثلبه ورميه بالكفر والفسوق .

وقد استطاع الأزهريون مرة أن يحملوا الشيخ حسونة النواوى على تعطيل درسه إلى أن أشار الشيخ محمد عبده باعادته ، وهناك حكاية مستفيضة لا بأس من ذكرها فى هذا المقام ؛ فقد تحدثوا أنه مرت فى درس الشيخ المرصفي عبارة جاء فيها أن الحجاج قال عمن يطوفون بالقبر النبوى « إنما يطوفون حول جيفة » وكان الشيخ طه حسين يومذاك يواظب على دروس الشيخ المرصفي ، وكان فيما زعموا يتشهى الالحاد والخروج على الدين ، فأخذ يقول : كلام الحجاج صحيح ، وصحيح جدا ، ولم لا يكون صحيحاً وكل جسم ميت أو سيموت ، وكل ميت جيفة أو سيصير جيفة ، وجسم النبي ككل

الاجسام ، وكل الأجسام تبلى فجسم النبي يبلى ، وكل بال جيفة فجسم النبي جيفة الخ ، فقامت مناوشة عنيفة بين الطلبة وبين الشيخ طه حسين ، ووصل الصدى إلى الشيخ حسونة فأمر بتعطيل درس الشيخ المرصفى ، وكانت أول مرة اتهم فيها الدكتور طه بالمروق وأخذ الأزهريون ينسبون مروقه إلى الشيخ المرصفى ، فى حين أن الشيخ وتلميذه لم يقصدا الاساءة إلى الرسول .

وهذه القالة السيئة التى دارت حول الشيخ المرصفى جعلته يحتقر مشايخ الأزهر ويحقد عليهم ، ولا يذكر أحدا منهم بخير حتى الأموات منهم . وأذكر أن المرحوم الشيخ مصطفى القاياتى كان يلقى دروسا فى الأدب والانشاء ، وكان الطلبة يقبلون عليه أيما إقبال وكنت من المعجبين بالطريقة الخطابية التى كانت تصبغ بها دروسه فسألت الشيخ المرصفى مرة عن رأيه فيه فأخذ يتجاهل السؤال فألححت عليه ، فلم يكن منه إلا أن قال : وأين الشيخ مصطفى من أبيه ؟ لقد كان أبوه ملكا . . وبهذا فر من الجواب !

ولكن هل معنى هذا أن الشيخ المرصفى كان رقيق الدين ؟ أستطيع أن أؤكد أن الشيخ المرصفى كان من أقرب الناس إلى ربه وإن لم يكن من أحرصهم على التمسك بالحروف ، فقد كان ذلك الرجل دقيق الاحساس أمام القرآن المجيد ، ولم أجد فيمن عرفت من كان يفهم القرآن كما يفهمه غير المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش وكان جمال القرآن يحمله أحيانا على الذهول ، وكانت له لحظات

يقضيها أسير الخشوع لروعة القرآن الشريف ، وكانَ يسمى النبى عليه السلام « سيدنا رسول الله » وكانت كلمة « سيدنا » حية فى نفسه حيـاة قوية جدا لا يدركها إلا المؤمنون الفانون فى الله والرسول

***

أشرت فى صدر الكلام إلى أن هناك مئات انتفعوا بأدب الشيخ المرصفى ، ولتحديد ذلك أذكر أن أدبه وعلمه وصلا إلى الناس عن طريق تلاميذه ، أما هو فلم يتتلمذ له شخصيا إلا عدد قليل ، ولذلك أسباب : منها انه كان ضعيف الصوت فلم يكن يستمع اليه فى الازهر أكثر من عشرة طلاب ، ومنها أنه كان قاسيا عنيفا فى معاملة الطلاب الذين حرموا سلامة الذوق واشتعال الذكاء ، وكانت أصغر قذيفة يلقى بها فى وجه الطالب المتنطع عبارة : « نعم ، يا ابن خروف! » وكان من العسير عليه أن يصبر على الطالب المتوسط الادراك وكذلك كان يطرد بعض الطلاب في كثير من الأحيان، ومنها أنه كان يحبس الطلبة فى درسه نحو ثلاث ساعات ، وأين من يصبر على ذلك فى زمن عرف أهله بالسآمة والملال . لاسيما إذا لاحظنا أنه كان يواجه مشاكل دقيقة من لغوية ونحوية وصرفية فى عناية لا يصبر على لأوائها إلا الأقلون

وأظهر الاسباب فى انصراف الناس عن درسه يرجع إلى أنه كان يفسد الطلبة على مشايخهم إفسادا لا صلاح بعده . فقد كان سيء الظن جدا بمدرسى الأزهر ، وكان يراهم جميعا كسالى أدعياء ، وكان فوق هذا يراهم فى الايمان من العوام المقلدين . ولهذا كان لا يتعلق به إلا الطلاب الذين يتأهبون للثورة على الازهر وتقاليده ، حتى ليندر أن يوجد بين الثائرين على التعاليم الازهرية شاب لم يصله بالشيخ المرصفى سبب قريب أو بعيد

ولنقيد هنا أن تلامذة الشيخ المرصفى لم يقصروا على الأزهر وحده ، فقد كان يعطى كثيرا من الدروس الخصوصية لعشاق اللغة والأدب من غير الأزهريين وأظهر تلامذته الأجانب عن الأزهر الكاتب المعروف محمد إبراهيم هلال

كان محمد هلال بك غنيا ، وكان كريما ، وكان فيما يظهر خفيف الروح عذب الحديث فتعلق به الشيخ المرصفى تعلقا شديدا ، وظل يتغنى به طول حياته ، ولا أذكر أنه سألنى عنه إلا وعينه مغرورقة بالدمع .

ومن موجبات الأسى أن محمد هلال بك اضطر فى الأعوام الاخيرة أن يتكسب من قلمه المرهف البليغ ، فكانت أخبار ذلك تقع على الشيخ المرصفى وقع الصاعقة ويقول : لعاً لك أيها الجواد المتلاف!

كان الشيخ المرصفى شاعرا ، ولكنه لم يقل شيئا جيدا إلا فى محمد هلال بك ، وكان يرى أن الشعر لا يطيب فى إنسان سواه . .

وتلك إشارات نثبتها للادب والتاريخ

***

ومن تلامذة الشيخ المرصفى على عبد الرازق ، وطه حسين وقد كان هذان الرجلان يمجدانه كل التمجيد إلى أن جاءت حكاية كتاب الاسلام وأصول الحكم ، فنفضا أيديهما من وداده آسفين

وتفصيل القصة أن الشيخ المرصفى كان عضوا فى هيئة كبار العلماء التى قضت بحرمان الأستاذ على عبد الرازق من لقب العالمية وفصله من منصب القضاء . وقدكان حكم الهيئة بالاجماع ، وكان ينتظر من الشيخ المرصفى أن يدافع عن تلميذه ولكنه لم يفعل

وكان هذا الموقف سببا كافيا الآن يبسط الدكتور طه لسانه فى أستاذه القديم ، فكان يقول بدون تورع : ماذا تنتظرون من رجل كان يتقاضى سبعين قرشا فأصبح يتقاضى أربعين جنيها ! يريد أن الشيخ المرصفى جبن عن نصرة تلميذه خوفا من الفقر وتعلقا بالثراء

والواقع أن الظروف كانت سيئة جدا ولم يستطع الشيخ أبو الفضل الجيزاوى نفسه أن يدافع عن الشيخ على ، مع أنه كان من أكثر الناس احتراما لأسرة عبد الرازق ، والدكتور طه نفسه لم يدخل الميدان مدافعا عن الشيخ على ، ولم يكتب فى مناصرته إلا مقالة واحدة لم يذيلها باسمه الصريح ، وهذا معناه عند من يعقلون !

يضاف إلى ذلك أن الشيخ المرصفي كان قد أسن جداً وفقد نشاطه ، وانضوى طائعاً بحكم السنين إلى صفوف المحافظين ، فلم يكن ينتظر منه أن يناصر رجلا وصفوه بالكيد للدين والخروج على التقاليد

وقد عاتبت الشيخ المرصفي بعد ذلك فقال : الشيخ على رجل فاضل ، ولكن قلمه أحمق

فيادكتور طه ، من لك بأخيك كله ، لعل له عذرا وأنت تلوم !

***

اشترك الشيخ المرصفي فى الثورة العرابية ، ثم اعتقل مدة قصيرة فلم يسأل عنه احد ولم يفكر فيه صديق . فلما خرج من المعتقل وضع لنفسه خطة سار عليها طول حياته ، وهى سوء الظن بتضامن المصريين ، وقد بلغ به الأمر أن يرفض الاشتراك فى جمعية أزهرية تكونت سنة ١٩١٥ للدفاع عن الدين ، وحجته فى ذلك كانت أن العلماء كسائر المصريين لا تصح الثقة فيهم ، ولا يحسن الركون إليهم . . . وهذه كلمة نثبتها للتاريخ ، راجين ان تكون الجماعات المصرية أعلى من أن يصدق فيها هذا الرأى الفظيع . . وكذلك كان رأى الشيخ المرصفي سيئا فى الهيئات الاسلامية جميعاً ، فلم يكن يفكر فى شرق ولا غرب ، ولا تتعلق نفسه بشىء غير التدريس والتأليف

وكان رحمه الله يحب المال حبا جما ، وكان لا يتحرج من إعلان أن السخاء المعروف عن العرب لم يكن إلا ضربا من الجنون

وقد وقعت فى درسه مرة العبارة الآتيـــة :

وقف رجل على باب بيت وقال : هل من لبن يبـاع ؟ فقالت ربة البيت : إنك يا هذا لئيم ، أو حديث عهد بقوم لئام ! هل يبيع اللبن كريم ، أو يمنعه إلا لئيم ؟

فقال الشيخ : يا سبحان الله ! أنا لا أفهم هذه الأشياء

وكان إذا سلم عليه أحد الطلبة فرأى يده ناعمة لينة قال له : مالك كده يدك زى يد الأولياء !

ثم ينطلق فيعجب كيف يأكل المتصوفة طعام الناس ثم تقبل أيديهم ، ويقول : هم الذين يجب عليهم أن يقبلوا أيديكم لأنكم تطعمونهم ، فما هذا الحال المقلوب !

وجاء فى درسه مرة قول بعض الأعراب يودع رفيقا له : انصرف راشدا يرحمك الله !

فقال الشيخ : هذا هو الكلام . ولكنكم تجدون علماء الأزهر جميعا يكتفون بعبارة واحدة :

« الله يفتح عليك »

وهى عبارة كانت تجرى على ألسنة المشايخ جميعاً حتى غيرها أستاذنا الشيخ الظواهرى بعبارة

« بارك الله فيك »

فهى الآن فيما أظن كلمة الشيوخ أجمعين أكتعين أبصعين !

وكان الشيخ رحمه الله قد لقى الأمرين من أصحاب المكاتب فقد كانوا يأخذون مؤلفاته ثم لا يفكرون فى الحساب فقرر أن يبيعها بنفسه ، وهى خطة عوجاء ، وهذا هو السبب فيما أصيبت به مؤلفاته من الخمول

كان الشيخ المرصفى بخيلا على نفسه فى كل شىء ، إلا فى اقتناء الكتب ، وقد شكوت إليه مرة أنى لا أملك نسخة من لسان العرب. فقال فى انفعال : بع ثيابك واشتر نسخة من اللسان

وكان رحمه الله يرى أن العرب اختصوا من بين الأمم بالفصاحة والبيان ، فكان يقول كلما جاء شاهد جميل : هم العرب يقولون ما يشاءون !

وكان رحمه الله يحترم الجبابرة من القواد أمثال زياد والحجاج وكان يعيب على المشايخ أن يقولوا فى الحجاج: قبحه الله ! وقد غضب أحد الطلبة يوما من ثناء الشيخ على الحجاج ، فرفع الأستاذ بصره وقال للطالب : لو نشأت فى عصر الحجاج لكنت رجلا !

وقد نظر الشيخ مرة فى الكتاب فزاغت عينه عن السطر المطلوب فقال :

رحمة لك ياعينى ! لقد طال ما أقذيتك تحت ضوء المصباح !

. . .

وبعد فهذه كلمات تمثل شخصية الشيخ المرصفى بعض التمثيل أردنا بها التقريب لا الاستقصاء . فرحمة الله على ذلك الرجل الذى كل نفع من اتصلوا به ، وهداهم سواء السبيل فى فهم نصوص الآداب

ومانزعم اننا وفيناه حقه ، وإنما أدينا بعض مايفرض الوفاء والسلام عليه بين الأبرار

فيه قولان !

الح بعض الأدعياء على أبيه أن يدعى العلم !! وزوده بهذه النصيحة : اذا سئلت عن شىء لم تعرف وجه القول فيه فليكن جوابك (فيه قولان) فسمع الوالد نصيحة ولده البار ! وكان الناس قديما قلما يعنون بغير المسائل الفقهية والنحوية ، فسأله سائل عن طهارة الكلب فأجاب : فيه قولان، فقالوا صدق لأنها موضع خلاف بين الشافعية والمالكية !! وسأله آخر أيرفع الخبر أو ينصب بعد ما ؟ فأجاب فيه قولان ! فقالوا صدق لأن فيها خلافا بين الحجازيين والتميميين !

وكان فى المجلس رجل ماكر ظريف فلاحظ أن هذا الرجل جاهل وأنه ينفذ خطة رسمت له . فسأله : أفى الله شك ؟ فأجاب المسكين فيه قولان !

فجاء ابنه — رضى الله عنه ! — وقال صدق فى جوابه فان فيها قولين فى الاعراب ! ولكن هيهات أن تغنى المغالطة بعد أن ضحك الناس من عمامة أبيه !

وهكذا تجرى الحال فى مصر : فكل مشكلة لها وجهان ، وكل أمر فيه قولان ، ولا يعلم إلا الله متى يعرف المصريون كيف تحدد نقط الخلاف .

الادب الجديد

أ كنت تحسبنا فى حاجة إلى أن نبنى دارا جديدة للبرلمان لو أن قصر « اللابيرانت » موجود ؟ إننا لو فعلنا ذلك لكنا من المسرفين وهل ترى من الحزم أن نبنى قناطر أخرى بمحاذاة القناطر الخيرية وهى ماهى فى متانة البناء[1] ؟ وهل ترى من حسن الادارة أن نحفر مجرى آخر للنيل يساير فرع رشيد أو فرع دمياط على حين لم يشك أحد الظمأ بالقرب من هذين الفرعين ؟ وهل تجد من الرأى أن يبنى مسجد جديد فوق القلعة مع أن مسجد محمد على يسع أضعاف المصلين هناك ؟

(١) تغيرت الحال ، فقد كتب هذا المقال منذ زمان

الأمر واحد أيها القارىء فى عالم المحسوسات وفى عالم المعقولات فما بالنا نبنى ما لا حاجة اليه فى الآداب باسم التجديد والابداع ؟ وأريد أن أقدم لك هذا الموضوع بشىء من التفصيل : هل تذكر أن النقاد الأقدمين فضلوا جريرا على الفرزدق لأن هذا ماتت امرأته «النوار» فلم يبكها إلا بقصيدة جرير فى بكاء امرأته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار　　ولزرت قبرك والحبيب يزار

وهذا لا يدل عندى على أن الفرزدق أضعف من جرير فى الرثاء ولكنه يدل على حبه للقصد وبغضه للاسراف ! وإلا فما الحاجة الى أن ينظم فى رثاء امرأته قصيدة جديدة وأمامه قصيدة جرير تسعده على البكاء ؟

إن عرائس الشعر فى عالم المعقولات تشبه الأنهار فى عالم المحسوسات ، فكما لا يجوز أن تحفر نهرا جديدا تتلف فى سبيله ماشئت من المبانى والمزارع من غير حاجة ماسة ، لا يجوز أن تنشىء قصيدة جديدة تسهر من أجلها ليلك من غير سبب معقول . وليس معنى التجديد والابداع أن تزيد أو تنقص ما أجاد فيه من قبلك الكتاب والشعراء ؛ وإنما تكون مبدعا حين تنشىء آثاراً جديدة فيما غفل عنه الأقدمون أو قصر فيه المحدثون . ولأضرب لك الأمثال :

ألم تشك مرة غدر الصديق ؟ ألم تحاول النيل من أخ كان وفاؤه طيب الحياة ، ثم عاد غدره نكد الحياة ؟ فان كنت وقفت هذا الموقف فى حياتك الوجدانية ؛ فهل تذكر أنك فزعت بعد نية القطيعة

إلى الصفح الجميل

كثير منا عالج هذا الموقف العصيب ، ثم هم بأن يعبر عنه رسالة أو ينظم فيه قصيدة ، ولكن ألا يكون من العبث أن يفعل ذلك وقد سبقه الشريف الرضى إلى الغاية القصوى فى استبقاء الصديق وإليك ماقال الشريف :

ولم صاحب كالرمح زاغت كعوبه	أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظـــاهرا متبلجا	وأدمج دونى باطنا متجهما
ولو أننى كشفته عن ضميره	أقمت على مابيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح	ومن حمل العضو الاليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه	أقول عسى ضنا به ولعلما
صبرت على إيلامه خوف نقصه	ومن لام من لا يرعوى كان ألوما
هى الكف مض تركها بعد دائها	وإن قطعت شانت ذراعا ومعصما
دع المرء مطويا على ما ذممتـــه	ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته	على مضض لم تبق لحما ولا دما

خبرنى بربك ما الذى ينقص هذه الصورة الشعرية حتى تحاول بناءها من جديد ؟ وما الذى بقى فى نفسك بعد هذا التفصيل حتى تتورط فى الفضول ؟ إذن فلتكن هذه القطعة أنشودتك حين يبدو لك ما يسوء من صديق قديم

وبعد هذا ؛ أتذكر أنك ظمئت إلى بعض الثغور ، وأنك حين وردت عدت وأنت صديان هائم ، ثم هممت بأن تقول شعراً فى

هذا المعنى الجميل ؟

قل الحق فكلنا ظماء ، ولكن هل وجدت أبدع من قول ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تدان
وألثم فاه كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذى بى من الجوى ليرويه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وماذا عسى أن تصنع إذا حاولت بسط هذا المعنى البديع ؟ إنك لابد مفسده إذا أقدمت على هذه المحاولة ! ويجب أن تعلم أن الثوب حين يلابس الجسم لايجمل به بعد ذلك أن يتسع ولا يحسن به أن يضيق ، وكذلك الصورة الشعرية حين تلابس المعنى المراد

وهل تذكر أنك هجرت بعض البيوت غير قال ولا صادف ثم أقبلت على بعض البيوت غير عاشق ولا وامق ، وأنك عجبت لترك حبيبك إرضاء لبغيضك ، حين أقبلت على بيت عدوك وأوليت بيت حبيبك الصدود ؟ وهل تجد فى مثل هذا الموقف أجمل من قول الأحوص :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
أصبحت أمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل
فصددت عنك وما صددت لبغضة أخشى مقالة كاشح لا يعقل

وتجنبى بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل
ولئن صددت لأنت لولا رقبتى أهوى من اللائى أزور وأدخل

فما الذى فات الشاعر فى هذا الموقف حتى تضع له غير هذه الأبيات ، ففى البيت الأول خلاصة الحديث وفى الأبيات التالية إيضاح وتفصيل ، ولعلك لاتجد أحكم من قوله :

وتجنبى بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل

وهل تذكر أن صديقا لج فى عتابك وكنت فى وده من الأوفياء وأنك أردت إقناعه بأن الحياة قصيرة ، وأن الحزم كل الحزم فى الانصراف عن العتب واغتنام أوقات الصفاء ؟

هذا معنى فطرى يجول فى جميع النفوس ، ولكن هل تجد فيه أجمع من قول سعيد بن حميد :

أقلل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الاخاء جماعة إن حصلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن على منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ـ ولا سبقت ـ ليمضين
من لا يشاكله لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مودة وليفقدن جمالها المأهول

وأراك تكلف بالعتاب وودنا باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول ؟!

ألم تر إلى الشاعر وقد سد فى وجه صديقه منافذ الفراق ؟ ألم تر إليه وقد تحسر على أيام كان يظنها ظوالم وهو الآن يبكيها بالدمع السخين ؟ فما معنى ذلك ؟ أليست هذه دعوة رفيقة إلى اغتنام الصفو العتيد ؟ ولا تنس خوفه من أن يموت أحد الصديقين فتكون قاصمة الظهر ، وغائلة الفؤاد ، وتأمل رفقه فى قوله :

ولئن سبقت - ولا سبقت - ليمضين
من لا يشاكله لدى خليل

بربك هل تجد أرفق من هذا الدعاء ؟ وهل ترك لك الشاعر شيئا تقوله في هذا الباب ؟ إذاً لا تحاول أن تضع شعرا جديدا فى هذا المعنى الذى وفاه سعيد بن حميد حتى لا يقبل المزيد !

ولا أشك أيها القارىء فى أنك رزئت مرة برجل أكول ؟ فان لم يكن ذلك ، فاعلم أنه سيكون . وإني مقدم لك قول ابن هانىء الأندلسى فى هذا المخلوق :

ياليت شعرى إذا أوما الى فمه أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وخبيث الزاد يضرمها جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ! ما أمضى أسنته ! كأنما كل فك منه طاحون
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين ؟!
كأنما الحمل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون

يخفض الرز من قرن إلى قدم   وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه   نار وفى كل عضو منه كانون
كأنما فى الحشا من خمل معدته   قرنفل وجواريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا   وجاذبتنا أعنتها البراذين

هذه نماذج من الأدب القديم . وقد قدمت لك أن من العقل أن نتتفع بما للأسلاف من الأدب الممتع الرصين ، ومن الأدب ماصار ميراثا للانسانية جمعاء ، فلننتفع به كما هو ولنعفه من التغيير والتبديل . وإذا شئنا أن يكون لنا أدب جديد فليكن فى موضوعات جديدة لم يتناولها الأقدمون ، وإلا أضعنا ماطمحوا اليه من الخلود وأسأنا الانتفاع بما قدموا من جهود !

***

رفقا بالورق والحبر والمطابع ياحملة الأقلام ! لاتكونوا أبواقا للقدماء ، بل كونوا شيئايذكره التاريخ ! لا خير فى الكاتب إن حرم الصدق والأمانة ، وليس فى السارقين صادق أمين ! اكتبوا بأنفسكم ولأنفسكم ، فان لم تستطيعوا ففى الأدب القديم مايروى ظمأكم لو تعلمون

فبراير سنة ١٩٢١

أحاديث . . .

فائدة مهمة جداً

ما كنت أعرف ، ولا كان غيرى من مدرسى الأدب فى مصر يعرف كيف يغلب على الأسماء العربية فى الأندلس والمغرب وجود مثل زيدون ، وعبدون ، وعيشون ، وخلدون ، ووهبون ، وسعدون الخ

وكان الظن أن هذه من صيغ جمع المذكر السالم ، ثم غلبت على أسماء الافراد

ولكن اسمع ماحدثنا به المسيوكولان الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس :

اللغة الاسبانية تضيف إلى أواخر الاسماء لفظ (اون) للتعظيم وقد نقل العرب ذلك عن الأسبان حين اتصلوا بهم فى الأندلس فقالوا فى زيد (زيدون) وفى وهب (وهبون) وفى عيش (عيشون) الخ . .

وقد جاء فى كلام لسان الدين بن الخطيب عمن اسمه حفص ما معناه : لقد كان مكتفيا باسمه حفص ، فلما أيسر واستغنى تطاول واستكبر وسمى نفسه (حفصون)

ومن أمثال أهل المغرب (إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى كلبون)

أليست هذه حقا فائدة مهمة جدا ؟

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ أحمد زكى باشا كان يلقى محاضرة منذ نحو خمسة عشر عاما عن عرب الأندلس ، فذكر من خصائصهم أن منهم من كان يقول ستين وعشرة فى مكان السبعين وكان الأستاذ يريد أن يقول إن مرونتهم فى التعبير وصلت بهم إلى مثل مايعبر اللاتينيون

فلنعرف الآن أن عرب الأندلس لم يقولوا ستين وعشرة فى مكان السبعين إلا تأثرا باللهجات اللاتينية ، أو تسهيلا للتفاهم مع الاسبان المستعربين

صك أم شيك ؟

كانت الجمعية المصرية فى باريس تعيد النظر فى لائحتها وكنت حاضرا ومعى الاستاذ كولان فكان الأعضاء يسألونى أن أحول بعض الكلمات الأعجمية إلى كلمات عربية ، فلما جاءت كلمة «أرشيف» رأيت أن أحولها إلى «سجل» وهى كلمة وردت فى القرآن (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) بغض النظر عن احتمال أن تكون فى الاصل دخيلة على اللغة العربية

ثم جاءت كلمة (شيك) فرأيت أن يوضع مكانها كلمة (تحويل) وهى لفظة مستعملة فى إدارة البريد لنفس المعنى الذى تؤديه كلمة (شيك)

ولكن المسيو كولان أسر إلى بتفضيل كلمة (صك) لأنها أصل كلمة

(شيك) فقد نقلها الانجليز أولا عن الفرس فقالوا (تشيك) ثم نقلها الفرنسيون عن الانجليز فقالوا (شيك) [١]

فاذا كانت كلمة (صك) هى الاصل المنقول عنه فلم تتخطاها إلى كلمة شيك ؟

ولاعبرة باحتمال أن تكون فى أصلها فارسية ، لأنها موجودة فى اللغة العربية منذ أكثر من عشرة قرون ، وفى هذا مايكفى لعدها من أصول العربي الفصيح

فلنقترح اذاً على بنك مصر إحلال كلمة صك محل كلمة شيك . . . وكلمة بنك هل تغير أيضا ، والجواب أن كلمة بنك قد تعربت ، فى حين أن كلمة شيك لاتزال عليها المسحة الأعجمية

الجهاد فى سبيل الله

الاستاذ كولان يعد من أوائل المتعمقين فى فقه اللغة العربية ، وقد سألته كيف أتيح له ـ وهو أعجمى ـ أن يصل إلى هذه الثقافة المتينة فى لغة العرب ؟! فأجاب بأن السر فى ذلك أنه ظفر باساتذة متفوقين فهو أولا تلميذ المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين ، وهما من كبار المستشرقين ، وهو ثانيا عاش فى مصر وتتلمذ للشيخ أبو درة

(١) ومعنى هذا أن كلمة صك ذهبت إلى أوربا ثم عادت إلينا وعلى رأسها برنيطة !

هذا جميل ، ولكن من هو الشيخ أبودرة ؟

هو رجل فاضل من المدرسين بالازهر الشريف وقد اتصل حينا بالجامعة المصرية وجرت على يده القصة الآتية

لما أفرج عن المرحوم سعد باشا وانتقل هو ورفاقه من مالطة إلى باريس قرر طلبة الجامعة أن يرسلوا اليه برقية تهنئة وكان الشيخ على أبودرة أكبر الطلبة سنا وعلما ، فرأوا لذلك أن يطلبوا اليه تحرير البرقية ، فكتب صدرها هكذا :

« إلى المجاهد فى سبيل الله والوطن سعد باشا زغلول »

فاعترض فريق من الطلبة قائلين : كلمة « المجاهد فى سبيل الله » تغضب إخواننا الاقباط ، لان الجهاد فى سبيل الله لايكون الا لاعزاز كلمة الاسلام ، وسعد باشا يعمل لاعزاز كلمة مصر فقط فمن الواجب إسقاط كلمة « فى سبيل الله » والاكتفاء بعبارة « الى المجاهد فى سبيل الوطن سعد باشا زغلول »

تلك أيام خلت ، وأظننا فهمنا الآن أن الجهاد فى سبيل مصر هو أيضا جهاد فى سبيل الله ، لان الله لايرضى أن يقنع المصريون بالضيم والهوان تحت راية الاحتلال

الآنسة مى

وبمناسبة الشيخ على أبو درة أذكر أن الجامعة المصرية لذلك العهد لم يكن فيها من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة هى الآنسة مى وكانت نعمة من الله ساقها الينا فى تلك الأيام ، وكنا جماعة من المحرومين

لانعرف الجمال إلا اذا قرأنا كتاب تزيين الاسواق أومصارع العشاق وفى أحد الأمسية جاءت الآنسة مى تسأل عن الحجرة التى تلقى فيها دروس الفلسفة العربية ، فتحامت أن تسألنى ، لأنى فيما يظهر كنت «غلباويا» ولأنى كنت نشرت كتابا عن حب عمر بن أبى ربيعة الفاجر الملعون ! وكذلك لم تجد الآنسة مى أوقر من الشيخ أبى درة فى لحيته المستديرة وقفطانه الفضفاض ، وكانت هذه المحاورة :

ــ الآنسة مى : أين حجرة الفلسفة العربية ياأستاذ ؟

ــ الشيخ أبو درة : نعم يامولاتى ! نعم يامولاتي ! نعم يامولاتى ولم يستطع الشيخ أن يتجاوز هذه الجملة . فتقدمت إلى الآنسة مى (فدللتها على السبيل) ثم عدت إلى الاستاذ أبي درة فقلت له «فضحتنا ياسيدنا الشيخ ! ماهذا الهذيان ؟»

وانتظر الشيخ أبو درة لحظة حتى أفاق من إغمائه ثم قال : سبحان الله ! أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال !

فزلقته ببصرى وأنشدت :

أعلى هلا إذ كلفت بها ... كنت استعنت بفارغ العقل

أرسلت ترجو الغوث من قبلى ... والمستغاث اليه فى شغل

وقد وصلت هذه الحكاية إلى مسامع المرحوم إسماعيل بك رأفت ، وكان رجلا غزلا هده مر السنين ، فلما لقينى قال : تعال يامبارك أجب على هذا السؤال : ما معنى كلمة مى ؟

ففكرت طويلا ولم أهتد إلى الجواب

فقال : مى معناها الخمر ، وهى كلمة فارسية ، والفرس يسمون الخمارة (مى خانة)

فقلت : أشكر لك ياسيدى الأستاذ ، ولكن ما مناسبة هذا السؤال ؟ فأجاب : قدرت فقط أنك قد تبحث عن معنى هذا الاسم فأردت أن أعفيك من عناء البحث عن معناه

فيا أيها القراء اعلموا أن (مى) معناها الخمر ، وأن الآنسة مى معناها المدموازيل صهباء !!

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ‌ ‌ ‌ ‌ فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذاانفردت وماشوركت فى صفة ‌ ‌ ‌ ‌ فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا

تصفية حساب

كان الأستاذ لطفى بك السيد مراقب الجامعة المصرية فى عهدها الأول ، وقد أخبرني أحد الثقات أنه تحدث فى إحدى سهراته بأن بعض الطالبات فى الجامعة المصرية شكون إليه مرة أن الطلبة يجذبون شعورهن وقت الدرس ، وأنه لذلك فكر فى إبعاد الطلبة عن الطالبات !

وهذا خطأ يحتاج إلى تصحيح ، فان الجنس اللطيف ما كانت تكثر أزهاره إلا فى دروس المسيو لويس كليمان ، وكان جمهور الطالبات من عناصر أجنبية ، وكان حرصنا شديدا على معاملتهن بالرفق والحنان

وأنا أقسم بالله أنى كنت فى غاية الأدب ، فان كان فى ريب من

ذلك فليعد التجربة من جديد !

ولكن هل يستطيع لطفى بك أن يراجع مثل هذا الحساب ؟

لقد كان ذلك الرجل ناراً تضطرم فى عهد الشباب ، وهو اليوم كتلة من الرزانة والوقار ، وإن كان يخف أحياناً ، كما تزلزل الجبال !

فيارب باعد بيننا وبين وقار لطفى بك ، فقد يكون نزق الشباب أحب اليك من وقار الكهول !

٢٩ فبراير سنة ١٩٣١

درس الادب

فى الازهر الشريف[١]

نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر من دراسة الآداب العربية ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة التى وضعها قوم أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد ، ونود لو تفضل القائمون بادارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتعقيد ، لنطمئن كما اطمأنوا

(١) نشرت فى جريدة اللواء فى نوفمبر سنة ١٩٢٢

ولنترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ماللطلبة من قلوب وعقول !!

لا تنتظر أيها القارىء من كاتب مثلى أن يحدثك عن جهود العلماء فى نشر الآداب العربية فى ذلك البيت العتيق ، فانى لا أريد أن أفجعك فى آمالك وأحلامك ، ولا أريد أن تعلم ماأعلم من أمر أولئك الذين يحسبون أنهم حارسو لغة القرآن وهم يفعلون بها مالا يفعل الأعداء ! وماظنك بقوم يخطئهم العد من حملة الشهادة العالمية تمضى السنون والقرون وماتظهر لهم رسالة فى اللغة أو مؤلف فى البيان !!

وحسبك أن تعرف أن الاحاطة بالأدب أو الفهم فيه ، مما يغض هناك من أقدار الرجال ، فان كنت فى ريب من ذلك فأت بشاهد واحد يدل على أن الخبرة بالآداب العربية كانت مرشحاً للدخول فى هيئة كبار العلماء !!

وهل سمعت يوما أن طالبا أخطأه النجاح لأنه لم يعرف منازل الخطباء فى الدولة الأموية ، أو مراتب الشعراء فى الدولة العباسية وهل تحدث العلماء فى ناديهم بأن فلانا غير كفء لدراسة التفسير أو الحديث ، لانه لم يفقه ذوق العرب الذين تلقوا كلام الله وكلام الرسول ؟ وهل كتب واحد من المفتشين فى الأزهر والمعاهد الدينية كلمة واحدة فيها ملاحظة وجيهة عن دروس المطالعة والانشاء ، وهل يجرؤ مدرس واحد ممن يدرسون للطلبة كتاب العقد الفريد

فيدعى ولوكذبا أنه خبير بما فيه من مظان الخطأ والصواب ؟ وهل نجد من بين الذين تصدوا لبيان مافى كتاب الله من الحرام والحلال من درس الشرائع الوضعية والسماوية لذلك العهد حتى يدرك حكمة التشريع ، وهذا أول واجب على من يدرس قصيدة قيلت فى غرض خاص ، فضلا عن كتاب أخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وهل تألفت فى الأزهر جمعية أدبية كما تألفت فيه الجماعات للطرق الصوفية من جميع الأشكال والألوان ؟ أليس فى كل أولئك دليل على أن الأدب لانصير له فى ذلك المعهد الذى تحتشد فيه الآلاف المؤلفة من الشباب والكهول ؟ أو ليس فى بعض ماذكرت مايجعل تنبيه هؤلاء الغافلين فرضا على من يغار على لغة القرآن والحديث ؟

أشراك العقول

لا تجد كتاباً من الكتب الأزهريه قد خلا من الحكم على الشعر : أحرام هو أم حلال . وهذا خلاف قديم رويت فيه هذه النكتة الطريفة : وهى أن سعيد بن المسيب سمع رجلا يذكر أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء فأنشد من فوره :

أنبئت أن فتاة جئت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم أقام الصلاة ! ويذكر الرواة أن سعيد بن المسيب هذا نقل إليه أن قوماً يكرهون الشعر . فقال : لقد تنسكوا تنسكا أعجمياً !

ويقرب من هذا ما قاله رجل من علماء الدولة العباسية وقد سمع أن الامام مالكا يحرم الغناء فقال : أما والله لو قال مالك ذلك ويدى تناله لأحسنت أدبه ! إن رسول الله ما كان يحرم أو يحلل إلا بوحى من الله !

ولا يزال هذا الخلاف موجودا فى الممالك العربية : ففى جريدة العراق التى تصدر فى بغداد مقالة نشرت فى الشهر الفائت ترد بها على بعض الصحف العراقيه التى أنكرت على جريدة العراق (ذكرها خبر قدوم المغنية المصرية الشهيرة السيدة منيرة المهدية) ومنذ شهور نشرت جريدة الاهرام كلمة لاحدى السيدات (الشريفات) تستنكر فيها ان تكتب السيدات الممثلات (السيدة فلانه !) وتستبعد أن يصبح التمثيل حرفة لواحدة من نساء الأشراف . وكذلك ظل الشعر والغناء ثم التمثيل موضع خلاف .

وقد اضطر الغزالى إلى مدافعة هذه الأذواق السقيمة بقوله (إن لله سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات مايفرح ومنها مايحزن ، ومنها ماينوم ، ومنها مايضحك ، ومنها مايستخرج من الأعضاء حركات على وزنها) ولعل أمثال هذه الكلمات الصريحة كانت من الأسباب التى حملت الجهلة على رمى الغزالى بالكفر ! ويغلب على الظن أن تورط هذا الامام فى مذاهب الصوفية الغريبة كان شبه كفارة لما جناه فى شبابه من التفكير المعقول !!

الشعر والغناء والتمثيل ــ ولا تنس التصوير الذى حرموه ــ كل أولئك مما يجب على كل مفكر أن يبعد عن موارده الشهية ليوصف بالوقار والجلال ! فيا ويحكم ماذا أنتم صانعون لو شهدتم المعركة القائمة بين الهدى والضلال ! إنكم لو رأيتم كيف تتصاول العقول ، لسبق إليكم الجنون ــ إن لم تكونوا مجانين ــ ولكنه لا لوم عليكم ، وإنما اللوم على الجبناء الذين جعلوا رأى الجهال مما تنصب له الموازين !

نوفمبر سنة ١٩٢٠

درس فى الادب

قصائد المديح فى اللغة العربية

درس فى الأدب ؟

إنها كلمة ضخمة جدا ، كنت أحب أن أتحرج منها ، ولكن ما الحيلة وطلاب الأدب يحتاجون إلى هذا الدرس أشد الاحتياج وما كانوا يحتاجون إليه لو أن كتاب الصحف والمجلات لم يوحوا إليهم بغض طائفة من الفنون الأدبية ، وكتاب الصحف يقدمون المصاعب بلا حساب إلى أساتذة المدارس الثانوية والعالية ، فمن السهل أن يتندر كاتب بغمز العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة

ليصبح بغض تلك العلوم شريعة عند الطلاب ، ومن السهل أن يعبث كاتب فيزعم أن الشعر العربى أكثره مديح ، وأن المديح لم ينظم إلا فى طلب المال ، لتصبح قصائد المديح كلها لغواً عند طلبة الآداب.

إن أساتذة اليوم يعانون صعابا كثيرة فى توجيه الطلبة إلى الدراسات الجدية ، لأن هؤلاء الطلبة يرون الحياة الأدبية تنال بأيسر الجهد ويرون من الكتاب من يذيع صيته مع الجهل المطلق بأصول العربية ، ويرون من الشعراء من يهز كتفيه حين توجه إليه مؤاخذة صرفية أو نحوية أو عروضية ، ثم يمضى مرفوع الرأس بين الناس .

لقد آن أن نعرف أن الأساتذة والصحفيين يشتركون فى تكوين الجيل الجديد ، وأن من الخير أن تقترب أوجه النظر فى فهم الأصول الأدبية ، وإلا فسيقع الطلبة بين تيارين متنافرين أشد التنافر وسيكون لهذه الحيرة آصار خطرة تصبح بعدها عقليات الطلاب موزعة بين القوة والانحلال

وقد يسأل القارىء عن الباعث لهذا الدرس .

وأجيب بأنى كنت أوصى فريقا من الطلبة بالمبادرة إلى اقتناء طائفة من المصنفات أعرف أنها لن تطبع مرة ثانية لأن الناس هنا يغلب عليهم الملل ، والكتاب الذى يقع فى أجزاء كثيرة يندر أن يطبع مرتين فى جيل واحد ، والمكتبة عند الأديب كالمعمل عند العالم ، وطالب الأدب يحتاج إلى تكوين مكتبته رويدا رويدا حتى

تغنيه بعض الاغناء عن تضييع الوقت فى الاختلاف الى المكتبات العمومية ، فلما جاء اسم (مختارات البارودى) وقف أحد الطلبة وقال : « هذه المجموعة أكثرها مديح »

أيها القراء ، إن المديح ديوان العرب فان كنتم فى ريب من ذلك فسأشفيكم من الشك بهذا الحديث .

***

لا أنكر أن كثيرا من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش ، ولا أنكر أن كثيراً منهم وصل بذلك إلى أسفل دركات الاسفاف ، وأصرح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخيرا فى سبيل المنافع الزائلة ، وأعترف بأن هذه النقيصة تمس طوائف كثيرة من شعراء اللغة العربية ، وإن كان من أسباب العزاء أن هذه النقيصة لم يتفرد بعارها شعراء العرب ، فقد كان أكثر الشعراء فى أوربا يعيشون عالة على الملوك والامراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية إلا القليل .

ولكنى ـ مع هذا ـ أقول بأن المديح ديوان العرب ، وهو الوثيقة الباقية على ماكان فيهم من كرم الشمائل والخصال ، والمادحون قد يكذبون ولكنهم فى كذبهم يصورون ما اصطلح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب ، فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق

لانه يصور مايتشهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال وهل يمكن الارتياب فى تصوير المكارم البدوية التى تمدح بها الشاعر حين قال :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه
إلى كل شخص فهو للسمع أصور (١)
يصفقه أنف من الريح بارد
ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٢)
حبيب إلى كلب الكريم مناخه
بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر (٣)
حضأت له نارى فأبصر ضوءها
وما كاد لولا حضأة النار يبصر (٤)
دعته بغير اسم هلم إلى القرى فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا هلم ، وللصالين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزه اليها وداعى الليل بالصبح يسفر
تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى
على أهله والحق لا يتأخر

---

(١) أصور : من الصور بالتحريك وهو الميل الى الشىء بالوجه والعنق

(٢) الانف : من الريح أولها ، والنكباء : كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الاربع . والصرصر : الريح القوية .

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٤) حضأ النار : أوقدها ورفعها

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد

بهازره والموت فى السيف ينظر (١)

فأعضضته الطولى سناما وخيرها

بلاء وخير الخـــير مايتخـــير

فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة

بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٢)

فباتت رحاب جونة من لحامها

وفوها بما فى جوفها يتعرغر (٣)

وقد يمكن الشك فى هذه الصورة من حيث انطباقها على ذلك المتمدح ، ولكن لاريب فى أنها تمثل النبل فى الشمائل البدوية والباحث الموفق الذى يستمد من الأدب شواهد لعلم النفس سيجد فيها صورة صحيحة للاخلاق العربية ، وسيتمثل كيف يهيم الجائع فى الليل فيستنبح لترد عليه الكلاب فيعرف أين يقيم الناس ، ثم يمضى حيث يرحب به الكلب الذى ألف الضيافات ، وتنفر منه الجمال التى تعرف حتفها بقدوم الضيف ، وسيتمثل أيضا أريحية ذلك البدوى الذى يرفع النار ليهتدى بها الضالون فى البيداء ثم يتصور

(١) البرك بفتح الباء : الابل ، والبهازر جمع بهزرة على وزن قنفذة وهى الناقة العظيمة

(٢) أوفضت : تفرقت

(٣) الرحاب الجونة : هى هنا القدور السود

تلك الضجة المرحة التى تفيض بها خيام الأعراب الاجواد وهم يستقبلون الضيف

وأنت، يا ابن المدينة ويا مادر العصر ، ستقرأ هذا الشعر فتتمثل فيه ألوانا من الاريحية العطرة لم يشتمل عليها إهابك فتعرف حينا وتنكر أحيانا ، وأنت فى عرفانك ونكرانك مدين لهذا الشاعر الذى أمتع وجدانك بهذه النفحات العطرات

***

نترك البادية ، وشعراء البادية ، ثم ننتقل إلى شعراء الحضارة وسنجد عندهم أفانين من القول هى الصور الباقية لما عرفوا من أزمات النفوس والقلوب

هل تعرفون قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية ؟

لقد حدثتكم عنها فى المذياع منذ أسابيع ، وفاتنى مع الاسف أن أدلكم على موقف هو نموذج للتشفى ، والتشفى رذيلة خلقية ولكن الباحث يحتاج إلى شواهد للرذائل ، فانها تدرس كما تدرس الفضائل . ومن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وبضدها تتميز الأشياء

انظروا كيف يتشفى ذلك الشاعر الفحل وقد تهدمت عمورية :

ماربع مية معمورا يطيف به ... غيلان أبهى ربأ من ربعها الخرب

ولا الخدود وإن أدمين من خجل ... أشهى إلى ناظرى من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته عن سوء منقلب

قد تقولون إن من القسوة أن يفرح الرجل لمدينة دكت حصونها ، وهدمت أبراجها ، وقوضت معالمها ، وصح في أهلها قول ذلك الشاعر الشامت :

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على
بان بأهل ولم تغرب على عزب

وأجيب بأنى أستقبح من هذا ما تستقبحون ، ولكنى أقرر أن هذه الصورة البشعة ، صورة الشماتة ، مما يجب تقييده ، والدلالة عليه ، لانها من الصور الانسانية التى يهتم بتحليلها العالم والفيلسوف وهذه الصورة بالذات من نماذج القسوة الحربية ، والجيش الذى يهدم مدينة معادية يقف على أطلالها وقفة الفرح والابتهاج

وصاحبنا أبو تمام جاء بصورة بارعة كل البراعة لشهوة الشماتة والحقد . وما ظنكم بمن يتمثل ربع مية وهو معمور يطيف به المحب فيراه أقل جاذبية من منظر عمورية وهى خراب ، ويتمثل الخدود أدماها الخجل فيراها أقل نضارة من خد عمورية وقد عفره التراب

هذا بغى فى عالم الأخلاق ، ولكنه نبل حين تذكر البطولة والابطال

تذكروا هذا ، ثم حدثونا : أنغفل بائية أبى تمام هذه لأنها قصيدة مديح ؟

إن الحكمة ، وهى أنفس مايقتنى الناس ، وقعت غير مرة فى تلك القصيدة ، وهل يمكن فى عالم الفكر أن نستغنى عن هذين البيتين

عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب

وسيقول ناس من خلق الله : لقد ثقل البيت الأول بالجناس فليعرفوا أننا نراه غاية فى خفة الروح ، وحسب الشاعر أن وفق إلى أن يقول :

« ولو أجبت بغير السيف لم تجب »

***

والبحترى الذى ضربت بمدائحه الامثال ، أترون تلك المدائح مما يجب إهماله لأنها من صنوف التملق والرياء ؟ . لقد تأملت تلك المدائح فوجدت فيها كثيراً من الصور النفسية التى يقف عندها من يهتم بدرس دخائل النفوس ؛ وانظروا هذه الأبيات من داليته فى مدح ابن الزيات محمد بن عبد الملك

واستوى الناس فالقريب قريب ... عنده والبعيد غير بعيد
لايميل الهوى به حين يمضى الرأ ... ى بين المقلى والمودود
وسواء لديه أبناء إسما ... عيل فى حكمه وأبناء هود
مستريح الأحشاء من كل ضغن ... بارد الصدر من غليل الحقود

مارأيكم فى هذا ؟ أترون سوء المنقلب فى مصاير الناس يقع

إلا بعلة الهوى فى إمضاء الرأى ، والتفرقة بين الأصدقاء والأعداء حين تنصب الموازين ؟ وهل ترون متعة أفضل وأروح من راحة الاحشاء من عنف الأضغان ، وبرد الصدور من غليل الأحقاد ؟

إن مثل هذا الشعر لايمر باسماع الممدوحين بدون أن يترك فى نفوسهم شوقا الى العدل ، وحنينا إلى سلامة الصدر من الغل فهو من نفثات الاصلاح ، ولو كره المتحذلقون

وفى القصيدة نفسها قطعة وصفية ، وان كانت مدحا ، فقد وصف « الكاتب » فى شخص ابن الزيات وصفا دقيقا يعد نموذجا من نماذج البيان . وإليكم هذه الابيات :

لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع مايخلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى عن أغانى مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـن به غاية المراد البعيد

هذه قطعة وصفية وردت فى قصيدة مدح ؛ أترون فيها شيئا من الفضول ؟ وكيف والبيت الأول وحده يفيدنا فائدة عظيمة ، فهو يدلنا على أن الناس فى عهد البحترى كانوا يفهمون أن هناك فنا انشائيا اسمه « فن عبد الحميد » وفى ذلك رد على جماعة من المستشرقين كانوا يرون عبد الحميد من الشخصيات الخرافية ، وتبعهم فى ذلك أحد أدباء مصر فى العهد الحديث . ولكم أن تقولوا إن فى بعض هذه القطعة ما يجرى فى طريق المدح الفضفاض ، غير أنكم لا تستطيعون أن تنكروا دقة الوصف فى هذين البيتين :

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

ففيهما دستور لنظام الكلام البليغ ، وهما يصلحان للتمثل فى أكثر مقامات الافصاح

***

أما بعد : فهذه اشارات تنفع من يدرس الأدب ليستخلص منه الحقائق النفسية والاجتماعية ، وسنتبعها بأمثالها ان اقتضى المقام ذلك ، ليعلم شباب هذا الجيل أن أسلافهم لم يكونوا عابثين ، وأن من الهزل نفسه ما يكشف عن مواطن هى عند الباحث جد صراح

أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

من عهد الى عهد

كان احمد بن يوسف مصريا ، وانا كذلك مصرى . لقد لقى فى مصر بعض الظلم ؛ وأكاد ألقى فيها كل الظلم ؛ كان يحسن إلى كثير من الناس ، فيفي له من يفى ، ويغدر به من يغدر ، وانا ـ فى حدود طاقتي ـ ابذل البر والمعروف . ثم ألقى من بعض من احسن اليهم اشنع ألوان الجحود . وأتلفت الى اصدقائى الاوفياء أعدهم فاقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة . ثم أغمض عيني من لذعة الكمد الوجيع

النثر الفنى ج ١ ص ١١٣

فى اليوم الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٣١ لقينى فى فناء السوربون أحد أساتذة مدرسة اللغات الشرقية فصافحنى وقال : « لقد تلقيت اليوم دعوة لحضور الحفلة التى سيقيمها الأساتذة تكريما لك بعد ظهر الأحد المقبل ، فأنا أهنئك ، لأن فى ذلك دلالة على أن الأساتذة يعتقدون أنك قدمت إليهم كتابا يستحق التمجيد »

وكان ذلك قبل الامتحان بيومين ، ففهمت أن نجاحي صار مؤكدا ، ثم تلفتت نفسى إلى مغزى التكريم الذى يظفر به رجل فلاح فى أروقة السوربون ، ولم يكد خيالى يطوف بهذا المعنى حتى غلبنى الدمع ، وقلت : سبحانك ربى ! ما أعدلك وما أرحمك ! هذا عبدك الذى خرج من مصر طريدا شريدا لا يملك إلا دعوات أهله

وزوجته وأطفاله ، سيكـرمه الأساتذة بأنفسهم تكريما لا يقع إلا فى النادر القليل!

ثم عدت إلى بيتى فتوضأت وصليت صلاة الشكر ، ودعوت الله أن يلهمنى حب الخير ، وأن يقينى شر الزيغ ، وأن يهبنى التوفيق

ومضيت إلى منزل المسيو ديمومبين أسأله : أصحيح أن الاساتذة سيقيمون لى حفلة تكريم ؟

فابتسم الرجل وقال : إذا نجحت فى الامتحان!

فقلت : كنت أنتظر أن تصلنى دعوة!

فقال : لو فعلنا ذلك لكان معناه أنا نعلن اليك نجاحك ، وذلك غير مضمون!

فقلت : نجاحى غير مضمون بعد ذلك الجهاد الطويل ؟!

فقال : أحب أن تعلم أنى سأحضر يوم امتحانك ومعى المسدس

فانزعجت وخشيت أن يكون جادا ، فان الرجل الفرنسى لاتؤمن وثباته وبدواته ، وكنت قد ناقشته في كتابى مناقشة عنيفة!

ولكن الرجل استدرك فقال : هذا هو المسدس! وأخرج زمرة أوراق أعدها للنضال

عندئذ اطمأننت ، لان هذا الجدل لايخيفنى ، وأستطيع بفضل مافطرت عليه من الهجوم والعنف أن أحطم ألف مسدس من هذا النوع! وهل أخشى المسدس حين يصنع من الأسئلة والاعتراضات؟

وجاء يوم الامتحان وكان يوما سعيدا ، وكان الأساتذة أبر من

الآباء بنجباء الأبناء ، وكان المسيو ماسينيون يعترض ويجيب ، وناقشنى المسيو ميشو فى بحث كنت أعددته عن فيكتور هوجو مناقشة رفيقة وجاء دور المسدس الذى أعده المسيو ديمومبين فوجدت الخطر أهون مما كنت أظن ، وقضيت ثلاث ساعات فى الامتحان حسبتها ثلاث دقائق

وجاء دور التكريم بمعهد الدراسات الاسلامية فى السوربون واجتمع فريق من الأساتذة ورجال الأدب والصحافة ، وأعدت مائدة الشاى ، فحملت السيدة الكريمة حرم المسيو ديمومبين كأس الشاى وابتدأت بى ، فاستحييت وتراجعت فقالت وهى تبتسم : لن أبدأ إلا بك ، لأنك المنتصر

وفى مساء ذلك اليوم أقامت الجمعية المصرية فى باريس حفلة تكريم لذلك الانسان الذى احتفل بتكريمه فريق من أساتذة السوربون ؛ وخطب الخطباء وفيهم المصريون والسوريون والتونسيون ، وأنا فى أثناء ذلك كله أنطوى فى نفسى حياء وخجلا ، لأنى ما كنت أطمع فى أكثر من أن يمر الامتحان بسلام !

وعدت إلى مصر ، ولكن بأى قلب ؟

عدت وأنا يائس من أن أجد من يقول أحسنت ، وكنت أومن بالحكمة التى تقول « ليس إنسان بنبي في وطنه » وماهى إلا أيام حتى رأيت كلمة فى جريدة « أبو الهول » وكانت حينذاك تصدر يومية وفى تلك الكلمة دعوة لتكريم زكى مبارك ، فدهشت وقلت : أفى

الحق أني أجدمن يكرمني في وطني ؟ وزادت دهشتي حين علمت أن صاحب هذه الدعوة هو الاستاذ محمد على غريب ، وما كنت لقيت منه قبل ذلك إلا الشر ، فبدأت أومن أن قومي أكرم على أنفسهم من أن ينسوا من يوفق إلى عمل مجيد

ونسيت تلك الدعوة حالا ، لأنها وقعت في ضوضاء الانتخابات الاخيرة ، ومضى عامان ، ثم ظهر كتاب (النثر الفني) بالعربية بعد أن نشر بالفرنسية ، فقابله النقاد بالصمت المطلق ، وخشيت أن يتزعزع إيماني بكرم قومي ، ولكن هيهات فقد انطلقت الألسنة والأقلام بالمدح والثناء ، ودعا الداعي إلى تكريمي فلباه رجال الأدب مسرعين. وكان ذلك الاحتفال الذي لم تشهد القلوب مثله إخلاصا وصفاء

ماالذي قدمت لأمتي حتى أظفر بمثل ذلك الاعزاز

قدمت إلى أمتي كتابا هو جهد متواضع ، وإن تفضل النقاد فوصفوه بأجمل الصفات ، فما هو السر في هذا التبجيل

كنت أعرف هذا السر ثم نسيته ، أذكر أنني كنت رجلا مخلصا في خدمة الأدب العربي ، ثم جدت أحداث وخطوب كادت تبدد ذلك الاخلاص ، فجاء كرام قومي لينقذوني من أشراك الشك والارتياب

إن الذين اشتركوا في تكريمي تعاونوا على إنقاذ رجل كاد يقتله ما توهمه في زمانه من غدر وعقوق ، فكان صنيعهم صنيع الطبيب الموفق حين يأسو العليل

وما رأيت ولا رأى الناس أصفى من تلك الليلة التى اجتمع فيها صفوة رجال الأدب لتكريم مؤلف النثر الفنى ، وكان فى ذلك درس. كنت محتاجا إليه أشد الاحتياج ، كنت أحب أن أجد من يقنعنى بأن أمتى ترعى أبناءها رعاية كريمة ، أحب أن أطمئن إلى أن الاخلاص قوة عظيمة تزلزل الجبال ، كنت أحب أن أومن إيمانا صادقا بان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأخيراً كنت أشتهى أن أعرف. أن التأليف باب إلى المجد فى زمن انتهبت فيه الصحافة جهود الرجال

أفى الحق أن الرجل يحتاج إلى إعجاب المعجبين ليشد من عزمه وينشط ؟

إن نشاطى كان فى عنفوانه يوم كنت أشكو الجحود ، فما الذى جد بعد أن غمرنى قومى بمظاهر الوفاء ؟

أتظنون أن نشاطى سيخمد ؟ ما أظن ذلك ، فقد درست نفسى غير مرة ورأيت حب الأدب وحب الدرس من الميول القوية التى تسيطر على وجودى وتوجهنى إلى البحث والتنقيب

ولكن الذى سيقع بعد هذه الحفاوة القومية هو إصلاح نفسى. وكنت عييت عن إصلاحها ، ذلك بأنى كنت أخشى أن يصح ما يتوهمه الناس من أن الجد لا قيمة له فى هذه البلاد ، وأن الناجحين فى هذه البلاد هم النفعيون الذين لا يقدمون ولا يحجمون إلا فى سبيل منافعهم الذاتية ، فجاء كرام قومى فأزالوا عن ضميرى هذه الغشاوة وأفهمونى أن العاقبة للمخلصين

ولكن هل صفت نفسى كل الصفاء ؟

لا أزال أشكو بعدى من ربى ، وكنت قبل ذلك فى فراديس من الايمان الجميل . كنت أقول كلما رأيت ظلم الناس :

« لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض ، يبقى لى الله الذى تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصافحه يمناى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب ؟ »

أشتهى أن يعود ذلك الايمان الذى كنت أنعم به فى الأيام الخالية ، حين كنت أومن بأن الناس أصغر وأضعف من أن يملكوا لأنفسهم نفعا أو ضرا ، وأن الذى يصرف الأرزاق والحظوظ هو الله رب العالمين

ما أذكر أنى فكرت فى غدى مرة واحدة ، وما أزال كذلك وتلك هى البقية الباقية من إيماني ، ولكن هذا لا يغنينى ، أنا أشتهى أن ينعم الله على بايمان أقوى وأمتع ، أشتهى أن أعرف ربي كما كنت أعرف ، وأ كثر مما كنت أعرف ، فمتى أظفر بذلك ؟ كنت أعد أصدقائى ، ثم أصبحت أراهم لا يعدون . فهل أستطيع الوصول إلى ذلك الصديق الأعظم الذى أشتاق الى وداده اعظم الاشتياق ؟

ليس فى الوجود كله مايغنينى عنك ، ياسر الاسرار ويا روح الأرواح ، فاشملنى برحمتك وأغننى عن خلقك ، واجعلنى لديك من المقربين

رباه!

أنا أشتهى أن أومن بك ، فامنحنى الايمان ، واجعلنى فى إيمانى من المخلصين

٤ مايو سنة ١٩٣٤

مكاتب الموظفين

فى شهر رمضان

الصوم فريضة إسلامية يراد بها إعداد النفس لاحتمال مشاق الظمأ والجوع ، فهى ليست تعجيزاً للناس ، ولا صداً لحريتهم الذاتية ولكنها رياضة روحية يعد بها المرء نفسه لاحتمال مشاق الحرمان إذا جد فى الحياة مايوجب ذلك . ومن الواضح أن للحياة ألوانا كثيرة ، ففيها السلم والحرب ، وفيها الغنى والفقر ، وفيها المرض والعافية . . . والقدرة على ضبط النفس هى أساس الصلاحية للنهوض بأعباء الحياة . والصوم وسيلة من الوسائل الصالحة لكبح جماح الأهواء ، وتهيئة الملكات الانسانية لمقاومة مايعترضها من المشاق

كان الصوم فريضة واجبة فى الأيام الخالية ، وهو فى هذه الأيام أوجب ، فقد كثرت القيود التى صنعها الناس لأنفسهم بما افتنوا من ضروب اللذات الحسية التى يسمونها « الكيوف — جمع كيف » كالتدخين والقهوة والشاى ، فهذه الكيوف عقال عنيف

وهى تصد الرجل عن واجباته فى عنف وقسوة ، وإنى لأعرف من يلقون دروسهم والسيجارة فى أيديهم ، ولست فى هذا أمزح وإنما هى حقيقة ، وأعرف من لا يستطيع الشروع فى أى عمل إلا بعد أن يتناول فنجانا من القهوة ، أو كأسا من الشاى ، وهى قيود حسية ونفسية فى وقت واحد ، ولها أثر شديد فى تقييد العزائم والنفوس

والصوم يقاوم هذه العادات السيئة ، ويحرر النفس من قيودها ساعات من كل يوم ، والعاقل يحرم نفسه تدينا ـ أو تجملا ـ من هذه المهلكات . . . والنتيجة أن الصوم ليس سنة قديمة يجب أن تبيد وإنما هو سنة حسنة كانت واجبة يوم كانت الشهوات الحسية بسيطة أما اليوم فهو أوجب لأن الشهوات والكيوف أصبحت فى غاية من التعقيد

أكتب هذا بمناسبة ما أوصى به وزير المالية من منع التدخين والقهوة فى مكاتب الموظفين أثناء شهر رمضان ، وقد اتفق لى أن نقدت هذه العادة السيئة فى كلمة نشرتها بالبلاغ منذ سنين ، وأعود اليوم فأقول : إن الحكومة تعدل مواعيد الدواوين فى شهر رمضان تعديلا حسنا يعود به هذا الشهر وهو عبء خفيف . والحكومة لا تفرض على موظفيها أن يصوموا ، فان الصوم سر بين المرء وبين ربه ، ولكنها تمنحهم امتيازات فى المواعيد باسم الصيام . فان عز على الموظفين أن يحترموا شهر الصوم فمن حق الحكومة أن تعاملهم معاملة مدنية ، فلا ترفع عنهم شيئا من ساعات العمل اليومى ، ولهم

بعد ذلك أن يعودوا كيف شاءوا إلى القهوة والتدخين !

على أن الأمر كله فى هذه المسألة يرجع إلى الذوق . ومراعاة الذوق أول مايعنى به كرام الناس

٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤

بين العقل والهوى

أثر أنظمة الحكم فى حياة الشعوب

باريس فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

صديقى . . .

أكتب اليك ، وقد قضيت ساعات فى فونتينبلو ، بين القصر والحديقة ، ويهمنى قبل المضى فى هذا الكتاب أن أذكرك بأنى لا أكتبه لغاية سياسية ، وإنما أمضى على الفطرة ، كما عودت نفسى وعودتك فأعرض وجوه الحياة فى حيدة خالصة من شوائب الاغراض ، وأحاول جهد الطاقة أن أطلعك على نواح مختلفة من أثر أنظمة الحكم فى حياة الشعوب . فان رأيت فى خلال الحديث ماينقض مذهبا تحبه أو يؤيد رأيا تميل اليه ، فاحذر أن تظن أنى أثير غضبك أو أتملق هواك ، إنما هى رياضة عقلية يجرى بها القلم بلا شطط ولا ضوضاء . وقد آن لك أن تعرف أن حياة العقل تحتاج إلى حرية فى الكتابة والحديث

كانت زيارتي لفونتيبلو فرصة لدرس بعض النواحى من عقلية الشعب الفرنسى ، فقد كانت دعوة من صديقين عزيزين من كرام أهل باريس ، وكان فى تلك الدعوة مايمثل شغف أولئك الناس بروائع الفن الجميل ، وزادنى يقينا بصحة هذا الفرض أن تلك السياحة كانت فى يوم أحد ، وكان الطريق إلى فونتيبلو يموج بالألوف ، وكان رفيقاى يعلمان ذلك ، فحضرا الى المحطة قبل قيام القطار بنحو أربعين دقيقة ، لنستطيع الظفر بمقاعد فى الدرجة الثانية يضاف إلى ذلك أن أولئك الزائرين كانوا يمشون فى غرفات القصر وساحاته خاشعين ، وكانوا يستمعون مايلقى عليهم من الشرح فى سكون وإجلال ، وماأذكر أنى سمعت من أحدهم إشارة لغو أو كلمة فضول ، وهذا وذاك يمثل جانبين من العقلية الفرنسية ، فهم أولا يقدرون الفن حق قدره ، ويفهمون أن النزهة الجميلة لاتتم إلا بمشاهدة الفن الجميل ، وهم بعد هذا متصلون بماضيهم أشد اتصال فلا يوجد فتى ولافتاة ولا كهل ولاعجوز إلا وفى أنفسهم صور من ماضيهم الذى يمثل الفزع حينا، ويمثل المجد أحيانا . والحياة الكاملة لا تكون فى الحاضر وحده ، فان الحاضر قد يعجز عن تغذية المشاعر والعقول وهو بشواغله ومضجراته قد يغزو النفوس بالسأم والملال . ومن أجل هذا تتطلع النفوس إلى الماضى فتأخذ من صوره وألوانه ، وأفراحه وأتراحه ، ماتلون به الساعات الحاضرة ، وتدفع به مايساورها من وحشة الاملاق فى عالم الأذواق والأحاسيس ، وفى النفس الانسانية

آفاق عجز عن درسها علماء النفوس ، وتلك الآفاق تقفر وتوحش كلما تقدم الانسان فى طريق العلم والمدنية . فهو لذلك محتاج إلى من يروح عنه بطائفة من الملاهى المصقولة التى تسمى العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والتشريع . فالطفل يلهو بأرجوحة أو ألعوبة والرجل المثقف يلهو كما يلهو الطفل ، ولكن لهوه يأخذ وجهة معقدة تناسب عقله المعقد ، ومن تلك الألاعيب خرجت العلوم والآداب والفنون ، وهى ألاعيب لا ينصرف عنها إلا المريض من الرجال ، كما لا يزهد فى ألعابه إلا العليل من الأطفال

وقصر فونتينبلو الذى نتحدث عنه قديم العهد، فقد بنى جزء منه فى القرن السادس عشر ، وبنى باقيه فى القرن السابع عشر ، فهو أقدم من قصر فرساى بنحو مائة عام ، ويمتاز بأنه فى مبانيه يمثل مذاهب مختلفة فى العمارة والبناء والنقش ، بخلاف قصر فرساى الذى بنى فى نحو عشرين سنة فانه يمثل عصر بانيه لويس الرابع عشر ومع أن قصر فرساى أفخم وأروع فان قصر فونتينبلو يفضله بما بقى فيه من نفائس الأثاث ، ذلك بأنه بعيد عن باريس ، فسلم لبعده من فتك الثائرين الذين بددوا ما كان فى قصر فرساى من التحف الغالية . . . والثورات لا ترحم إذا خرجت من قلوب الشعوب

وقد بنى هذا القصر على رأس غابة هى أكبر الغابات الفرنسية على الاطلاق ، والقصور الملكية فى فرنسا بنيت كلها فى رؤوس الغابات ، وسبب ذلك أن ملوك فرنسا كانت نشأتهم فى الأغلب

ريفية . وكانوا يفضلون أن تكون القصور مما يواجه أماكن الصيد فكان الملك يخرج من قصره على ظهر جواد ثم يتوغل فى الغابة ليصطاد ، وبهذا كان الجمهور لا يراهم إلا قليلا ، لأن الغابة دنيا ثانية لا يحتاج من يقيم فيها إلى مشاهدة الناس

والنشأة الريفية لملوك فرنسا هى فى رأيى من أهم الأسباب لتعلق الفرنسى بأرضه ، فالفرنسى يمتاز بأنه يحب أرضه حبا شديدا ، وحاله فى هذا الحب يماثل حال الفلاح المصرى ، وربما كان الفلاح الفرنسى ألصق بأرضه وأعلق ، فهو لا يتحدث عن الوطن فى جملته إلا عند المناسبات ، أما وطنه فهو بلدته التى يحيا فيها ما له الصامت والناطق ، ولا كذلك الناس فى الأرض المصرية ، فان انحياز الأغنياء إلى العواصم والحواضر كاد يغرس فى أنفس الفلاحين بذور الزهد فى أرضهم التى تدر عليهم الخير والبركات

***

كان قصر فونتينبلو سكنا لجماعة من الملوك ، وفى أبهائه وأروقته نماذج باقية من الفن فى مختلف العهود ، وزيارتى لهذا القصر جددت فى نفسى التفكير فى الملكية والجمهورية ، وما لهما من الأثر فى حياة الشعوب

وأستطيع أن أصارحك بأن نظام الجمهورية ليس خيرا كله ونظام الملكية ليس خيرا كله ؛ فكلا النظامين له مزايا وعيوب .

غير أنه من المؤكد أن نظام الملكية هو النظام الذى تزدهر فى ظلاله الآداب والفنون ، فان كنت فى ريب من ذلك فتذكر اهرام مصر ، فان تلك الاهرام بنيت ولا جدال تحقيقا لهوى من بناها من الفراعنة ، ولو كان فى مصر لذلك العهد حكومة جمهورية أو برلمانية لاستطاع أقل الناس سلطانا أن يقف ذلك البناء بحجة أنه لا ينفع الفلاحين ، وأن إنشاء ترعة أعود بالفائدة من تلك المبانى الصماء !

ونحن اليوم نحكم بأن الاهرام بنيت فى ظلال الاستبداد ولكن كيف تكون مصر لو خلت من شوامخ الاهرام ؟ إن تلك المباني التى نهض بها الفلاحون مسخرين هى عنوان عظمتها فى العالمين وما نقوله عن الاهرام نقوله عن قصر الكرنك ، ذلك القصر الذى تحدثنا أطلاله بأنه كان آية الآيات فى دقة الهندسة وفخامة البناء .

وقد بنى قصر الكرنك عن طريق السخرة ، لا ريب فى ذلك ، والفلاحون فى الاقصر لايزالون يئنون مما قاسوا فى بناء الكرنك وآية ذلك أنهم لا يجتمعون فى عمل شاق إلا تغنوا بهذا النشيد :

« ياعين ، كونى صبارة »

ولا تعجب مما أقول : فان آلام الأجداد تنحدر فى الأصلاب حتى يئن بها الأحفاد

وللاهرام والكرنك أمثال من الآثار الخالدة على ضفاف النيل وهى كلها تمثل أهواء الملوك ، وفى مقابل تلك الآثار لا تجد قنطرة فرعونية تمثل عقل الفراعنة فى تدبير ماء النيل ، ولو أنهم شغلوا عقولهم

وأنفسهم بمصالح الاهالى لكان للفرعونية وجهة قومية ، ولكنهم وقفوا عند شهواتهم فى دنياهم وأخراهم ، ولم يظفر الفلاح من تفكيرهم إلا بالقليل

وكذلك الحال فى الارض الفرنسية ، فالقصور الملكية هناهى أروع أثار هذه البلاد ، وهى كلها تمثيل لشهوات الملوك ، ولكن أى تمثيل ؟ إن الفن العالى ليحيا حياة خالدة فى أبهاء هذه القصور وغرفاتها وشرفاتها ، وسراديبها وأبراجها ، والقلم يعجز عن وصف غرفة واحدة ؛ وما ظنك بقصر تفرد كل ركن من أركانه بأسلوب فى النقش والتصوير ، وتميزت سقوفه وجدرانه بأساليب من التلوين والتهويل : إن هذا من عمل الجن لا من عمل الناس !

وقد تسأل : أكان ملوك فرنسا يشغلون برعاياهم كما يشغلون بقصورهم ؟

قد يكون ذلك ، ولكن الآثار الباقية تدل على أن الأثرة كانت أغلب على طباع أولئك الملوك . والتاريخ يحدثنا أن العهود الملكية لم تخل من عنف الظلم وقسوة الاعتساف ، غير أن هذا كله اعتصر اعتصارا ليحفظ لفرنسا مجدا خالدا هو مجد الأدب العالى والفن الرفيع والشعب الذى سخر تسخيرا فى بناء القصور الملكية هو نفسه الشعب الذى يحيابها اليوم ، وقيام تلك القصور هو وحده دليل على أن ذلك الشعب صالح للنهوض بجلائل الأعمال . فمن أى عنصر من عناصر الصبر صيغت نفوس المهندسين والفنانين الذين أبدعوا ما أبدعوا من القصور والتماثيل فى بلاد السين ؟ ومن أى عناصر الاحساس صيغت أذواق المثالين الذين جعلوا أرض فرنسا سلاسل ذهبية

من آيات الفن الجميل ؟

لقد سخرت الانسانية طويلا لأهواء الملوك ، العادلين منهم والظالمين ، ولكن تلك السخرة كانت رياضة فنية هي الذخر الباقى لأذواق الانسانية . فلا تلوموا الملوك على مافعلوا ، وانظروا ماتركوا من آثار هي الدليل على ما عند الانسان من عقل وذوق واحساس

إن الجمهورية نظام مقبول ولكنها ليست إلا إدارة منظمة. ففى عهد الجمهوريات تحفظ حقوق الشعوب ، ويشعر الناس بأنهم سادة أنفسهم ، غير أنهم يقفون عند مصالح المعاش ، ولايتخطونها إلاقليلا . وفى ظلال الأنظمة الجمهورية يقل الترف فى الحياة العقلية والوجدانية وتصبح الامور وهى تقاس بمقياس النفع ، ولا تتقدم الآداب والفنون إلا بوحى من الأفراد الذين بقيت فى نفوسهم بقايا من الأذواق الملكية ، والملكية نوع من الذوق يحتل أحيانا رؤوس الصعاليك فيصبحون وهم فقراء الجيوب ، أغنياء القلوب

فى الجمهورية عزة قومية ، ولكنها لاتحيا حياة صحيحة إلاإذاعاش الافراد عيش المياسير ، وحياة اليسر والترف كفيلة ببقاء الآداب والفنون . والترف هنا ليس معناه اللين الذى يأنس اليه الوزراء والأمراء فى عهد مثل عهدلويس الرابع عشر ، ولكن معناه الغنى المعقول الذى يوحى فنونا وآدابا تمثل القوة والفتوة ، فقد يكون فى المصانع والمعامل حياة أنضر وأجمل من مظاهر الفن المترف فى

فونتينبلو وفرساى

فى فرنسا اليوم حزب يدعو إلى عودة الملكية ؛ وهو حزب قوى شديد المراس ، ولكن حذار أن تظن أن أولئك الملكيين يثورون على الجمهورية لتبنى لهم قصور جديدة كقصور اللوار . هيهات فتلك أيام خلت ، لم يبق للترف فى بناء القصور أعداء ولا أنصار !

إن اصطدام الجمهورية بالملكية لا يقوم على أساس الفن ، وإنما يقوم على أساس المعاش ؛ فالنظام الأصلح للحكم هو النظام الذى تعيش فى ظلاله الشعوب عيش العزة والغنى ، ومن أجل ذلك سادت الأنظمة البرلمانية بجانب نظام الملكية ، وصار من المتعذر أن تصير أمور الأمم إلى رجل فرد يسخرها كيف يشاء

لكل عصر فنون وآداب ، وآداب العصر الحاضر وفنونه تأخذ مددها من قلوب السواد ؛ فاذا خلت من بريق الأريستوقراطية فلها بريق آخر هو شعاع القومية . وإذا كان الشعراء والفنانون فى العصور الخوالى عرفوا المشجعات ممثلة فى عطايا الامراء والوزراء ، فمشجعات الفن والأدب فى العصر الحاضر تتمثل فى أذواق الجماهير التى تناصر الأدباء والفنانين ، وأذواق تلك الجماهير قوامها النفع والفائدة فى تصور جلائل الأعمال

أتريد الحق أيها الصديق ؟

إن ساعة فى مصانع ستروبين فى باريس أعود على القلب بالمعانى الشعرية من أيام فى قصر فونتينبلو أو قصر فرساى ، وإن

منظر الفتاة العاملة وقد سود وجهها الحديد لأبلغ فى الجاذبية من صورة بسيشيه فى جدران قصر شانتي ، أو ملعب الولدان فى قصر هنرى الرابع

إن الذوق يتـابع الزمن فى صوره وألوانه ، وأصلح الناس للحياة أطوعهم للانطبـاع بصورة عصره ، فتأمل ذلك ياصديق ورض نفسك على التأدب بذوق هذا الجيل.

الغاء الدراسات

الاسلامية فى جامعة استامبول

فى عرف الدول قانون مصنوع اسمه « حق الفتح » فلنعرف اليوم أنه جد قانون جديد اسمه « حق النصر » فالفاتح يصنع مايشاء والمنتصر يفعل ما يريد . وحق النصر يطبق فى تركيا الـكمالية كل التطبيق بلا مراعاة للقواعد والأصول ، ونحن لا ننكر أن مصطفى كمال انتصر بفضل الحزم والجد وقوة المراس والصبر على مقارعة الخطوب ، فله منا كل حمد وثناء . ولـكن هذا لايمنع أن ننظر إلى بعض تصرفاته العلمية والاجتماعية نظراً كان خليقا بأن ينظر مثله لو وقف مثلنا موقف الناقد الذى يرقب الحوادث بدون أن يكون له فيها هوى خاص

إن هذا الرجل المنتصر يريد مجاراة أوربا فى كل شىء ، لأن أوربا عنده هى النموذج وهى المثال ، ولكنه يسرف فى مجاراتها كل الاسراف ، فان الأمم الأوربية لم تفكر جديا فى تخليص لغاتها من الألفاظ اليونانية والعربية ، أما هذا الرجل الذى أطغاه النصر فيسعى جاهدا لتخليص اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية ، وينسى أنه يشل لغته بهذه الوثبة الجامحة ، فان اللغة المصنوعة لا تعبر عن أصحابها كما تعبر اللغة التى احتلت أذهان الناس وعقولهم منذ أزمان. وقد حدثنا من نثق بروايته أن كبار الحكام فى تركيا يحفظون من تقاريرهم نسخا سرية مكتوبة بحروف عربية لأن الحروف اللاتينية لم يمض عليها من الزمن ما يربطها بالألفاظ التركية ربطا وثيقا كالذى كانت تربط به وهى فى حروف عربية فاذا كان هذا حظ ما يكتب بحروف لاتينية فكيف يكون حال لغة تفصل منها ألوف من ألفاظها الحية لتحل محلها ألفاظ ماتت منذ عهود طوال

أما البدعة الجديدة فهى إلغاء الدراسات الاسلامية من جامعة استامبول ، وهى بدعة من جميع النواحى ، فان أمم أوربا تهتم فى جامعاتها بالدراسات الاسلامية ، بحجة أن الاسلام دين لكثير من الشعوب ، وأنه لا يصلح بالرجل العالم أن يجهل دينا يدين به ثلاثمائة مليون

إن مصطفى كمال لن يستطيع مطلقا أن يطارد الاسلام فى البلاد

التركية ، فكيف جاز له وهو رجل خبير بأهواء الشعوب أن يطبع شباب تركيا على غرار مدنى صرف ، وهو يعلم أن فى دمائهم قوى إسلامية تجيش وتضطرم وإن تجاهل المسيطرون ؟!!

من حق مصطفى كمال أن يحارب المتخلفين عن العلم والمدنية من رجال الدين ، ولكن من الخطر أن يتجاهل الدين نفسه تجاهلا تاما وأن يتوهم أن الدين ولى زمانه وزال

لقد سمعنا أن بطل تركيا يصم أذنيه عن النقد ولو كان صحيحا ولكن المخلصين للعزة الاسلامية لايملكون كتمان الحق ، ويرون أن رياضة شبان تركيا على فهم أصول الدين فهما صحيحا تسمو بهم إلى آفاق من المجد والكرامة والنبل

اساليب الكتاب

أشرت فى كلمة سالفة إلى المقالين النفيسين اللذين كتبا عن « ديوان زكى مبارك » ورأى القراء أني أجد فى هذين المقالين مايمس الحقائق التى أعيش عليها فى حياتى الأدبية ، فانا عند الأستاذ خلدون أشعر ، وعند الأستاذ المازني أكتب ، والأستاذ خلدون يرى أن أنقطع للشعر ، ولا أتخطاه إلى سواه. والأستاذ المازنى يرى أن أفرغ للنثر ولا أتعداه إلى سواه . وأنا أبدأ بمناقشة الأستاذ

خلدون وأقدم إلى القراء الفقرة الأساسية من مقاله الممتع ليظهر لهم جيداً وجه الخلاف :

« كان همى وقصاراى حين تصفحت ديوان زكى مبارك أن أتحسس من روح الشعر : هل استقر فيه ، أو هو محوم عليه من قرب أو من بعد ؟ وقد فرحت لصديقى حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ، ويجيل فيه الحياة ، بل لقد تهيأ لى معنى من تصفح الديوان أخشى إن ذكرته أن أغضب شطر الدكتور زكى مبارك النثرى ، ذلك أننى وجدت له فى الشعر من حسن الديباجة وقوة النظم وطلاوة الأسلوب ما لم أجده له فى النثر . ولقد كان نثر الدكتور فى نظرى محسوبا على نثر العلماء الذين لا تعنيهم الديباجة ولا يتعملون الحسن ، ولا ينصبون أنفسهم فى التأنق والتزين ، ومن أجل ذلك كنت أعنى دائما بتلقف الفكرة أو الموضوع الذى يعرض له الدكتور وأتجاوز عن النظر إلى الوعاء الذى قدم فيه »

ومعنى هذه الفقرة أن الأستاذ خلدون لا يرى الفن إلا فيما نظمت من الأشعار ، أما ما أنشأت من الرسائل وأذعت من المؤلفات فالفن فيها قليل ، ونثرى فيها محسوب على نثر العلماء ، وأنه لأجل ذلك كان حين يقرأ ما أكتب لا يعنى إلا بتلقف الفكرة أو الموضوع الذى أعرض له ويتجاوز عن النظر إلى الأسلوب

وأسارع فأقرر أنى اصطنعت أسلوبين فى حياتى الأدبية ، كان أولهما صنيع الفن والزخرف ، وكان ثانيهما وليد الفطرة والطبع

والنسخة التى بأيدى الناس من كتاب «حب ابن أبى ربيعة وشعره» تشهد بذلك، ففيها فصول كتبت سنة ١٩١٩ وفصول كتبت سنة ١٩٢٨ والفرق بين الأسلوبين واضح كل الوضوح، وهو ينطق بأن زكى مبارك تغير كل التغير فى مدى عشر سنين ومن المؤكد أنى تغيرت أيضا فصرت اليوم إلى غير ما كنت سنة ١٩٢٨ ومن ذا الذى لا يتغير ياسيد خلدون!

ولهذا التطور أسباب يحسن أن نعرض لها بشىء من الشرح والتفصيل :

كنت فى مطلع حياتى الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس إلى نفسى : وأحبهم إلى، وأبعدهم تأثيرا فى تكوين مشاعرى الأدبية، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الخوارزمى وابن عباد وابن العميد ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فنا خالصا يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل، والوزن والقافية، لأن أكثر النثر المصنوع مقفى موزون، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم المأثورة فى الأوصاف والتشبيهات، فاطمأنت نفسى إلى أن النثر الجيد هو

النثر الذى يعنى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصنع الفنان الذى ترى جهده وصنعته وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية من مظاهر البراعة والحذق ، ودقة النظم ومتانة التراكيب .

ثم شاء الله ، عز شأنه ، أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تشوق الحواس ، هناك جمال النفوس الصافية ، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة ، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل وتسكب على الوجدان مايوقظه ويحييه من نمير العطف والحنان وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج ، وأن مانسميه بالمحسنات البديعية ليس كل شىء فى صناعة الكتابة ، كما كان يفهم فريق من القدماء ، فقد يشق الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الاسلوب من غير أن يحس القارىء أنه أمام نثر مصنوع وتلك حالى فى أكثر ما أكتب اليوم ، وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوة الطبع وعبقرية الخيال . إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارىء بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والعنت

فى تخير الالفاظ ، ورصف التراكيب . ومثله مثل المناظر الطبيعية فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير ، أو تعرض عليه سمكة ملونة تلوينا دقيقا يزيغ البصر ويثير الحس ، ثم لايحسب الانسان أن فى هـذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة ، لأنه يظنها هـكذا خلقت . ولا يدرى أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء ، وكـذلك نقرأ الآثار الأدبية التى تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعـة . وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيـه أثر التكلف ومحاولة الابداع ، أما الثانى فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الاتقان والاجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ماتبدع بلا كلفة ولا عناء

غير أنه ينبغى أن نقيد أن هنـاك جمهورين من القراء : جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والتهويل ، مثلهم مثل البـاعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف من الثياب المخططة المبهرجة ، وهى ثياب ظريفـة خلابة لاتكلف صانعيها جهداً كبيرا ، ولـكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والابداع .

وهناك الجمهور الثانى ، جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية ، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية ، ويفرقون بين الصنعة السطحية

والصنعة الخفية التي لا يجيدها إلا الافذاذ القلائل من فحول الكتاب.
هذا الجمهور المثقف هو الذى يشق الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبي والحاسة الفنية لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة وكيف تؤدى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف. والكاتب البليغ حقا هو الذى يضع الالفاظ على قدود المعانى وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق ، بحيث لا يود القارىء المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومثل هذا الكاتب مثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضاراً أو غير مفيد

ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مثل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط ، ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من آلفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسج وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والاعلاق . فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق

وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والاذواق يجب أن يطمئن إلى أن جمهوره

معدود الأفراد ، فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق ، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء ، فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن إلى مساماة اللؤلؤ المكنون الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف

وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم ، وأقصتهم عن الجماهير ، فعاشوا فى أوطانهم غرباء ، ويرحم الله أبا تمام إذ يقول :

غربتـــه العلى على كثرة النـــاس فأمسى فى الاقربين جنيبا
فليطل عمره فلو مات فى مر و مقيما بها لمـات غريبـــا

***

أيرانى القراء أحسنت الدفاع عن أسلوبى فى النثر ، وأقنعت صديقى الأستاذ خلدون ؟ إنى لأنتظر من أدبه وفضله أن ينظر نظرة ثانية فى كتاب « ذكريات باريس » وأن ينصفنى من نفسه فقد ظلمنى حين نقد ذلك الكتاب ، ولا يستكثر عليه أن نفزع إلى انصافه ، فان المنصفين فى مصر أقل من القليل !

عيد الحرية

فى باريس مدينة النور والحرية

باريس فى ١٥ يوليه سنة ١٩٣٣

صديقى...

لقد تاقت نفسى الى محادثتك ، ولكن أين السبيل اليك ، وبينى وبين وجهك أيام وليال ؟

إنك تنتظر ، ولا ريب ،أن أصف لك بعض ماشهدت باريس فى عيد الحرية . ذلك العيد الحافل الذى يجدد شباب الناس فى كل سنة ، وتحيا ملاهيه أربع ليال سويا ، ونحن الأجانب عن باريس نسميه عيد الحرية ، والناس هنا لايعرفون إلا كلمة (١٤ يوليه) فنحن نتذكر فتح الباستيل لأننا لانزال نجاهد فى ما بلادنا من ضيم وعنف ، أما الشبان الفرنسيون فقد نسوا الباستيل نسيانا تاما ولم يبق لهم من ذكريات ١٤ يوليه إلاماشهدت باريس فى السنين الماضية من ملاعب وشهوات . والانسان ياصديقى لايذكر الظلم إلاعند الصراع ، فاذا انتصر أقبل على نفسه يرفهها ويمسح عنها آصار الضيم والاستبداد . فلا تحسب الناس يلهون فى باريس إحياء

لانتصار الحرية ، إنما يلهون لأن اللهو شريعة إنسانية أو حيوانية يجدد بها المرء مارث من عزائمه بعد طول النضال . وأهل باريس كانوا ولا يزالون أهل جد ولهو ، وهم فى الجد أبطال ، وفى اللهو أبطال ، وكذلك تكون الحيوية فى الأمم والأفراد ، فالرجل الذى لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف يجد ، والأمم التى لا تحسن المرح فى أيام السلم لا تحسن الضرب فى أيام الحرب . فالغرائز الانسانية مزاج من الضحك والعبوس ، والحلاوة والمرارة ، والعمل والفراغ والسلم والقتال .

على أن الحرية ياصديقى ، ليست إلا كلمة ، وهى فى الأغلب كلمة عديمة المدلول . والناس اصطلحوا على طلب الحرية حين تصطدم منافعهم بعقبات الغاصبين ، فاذا خلصوا من خصومهم حسبوا أنفسهم أحراراً ، وذلك وهم جميل !!

إن الحرية ترجع إلى أصلين : الخلاص من ظلم العدو ، والخلاص من ظلم النفس . وقد أفصح عن ذلك الرسول عليه السلام حين قال وهو عائد من إحدى الغزوات

« رجعنا من الجهاد الأصغر جهـــاد العدو إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »

فقد يكون الرجل حرا لا سلطان عليه ، ولكنه يظل مستعبدا لطائفة من العادات والتقاليد والطقوس ، ويمشى مثقل الرأس والقلب والروح بما يساوره صباح مساء من عدوان العرف والمألوف فى أنظمة الأخلاق

وهو إذا خلص من عنف التقاليد لم يخلص من عنف الشهوات والأحاسيس ، وليتك تفتح عقلك فتفهم أن المرء قد يخلص من جميع القيود ثم يظل أسير أمعائه فى جميع الأحوال . أتحسب الدنيا تجمل لأنها فى ذاتها جميلة ، أو تقبح لأنها فى ذاتها دميمة ؟ قد يكون فى الدنيا شيء أصيل من عناصر الحسن والقبح ، ولكنه شيء يسير بالاضافة إلى ما تفرضه الامعاء . فان كنت فى ريب من ذلك فتأمل كيف يحلو فى عينك الشيء تارة ويسمج تارة أخرى ، وهو كما كان لم يتغير ولم يتبدل . وإنما غيرته أمعاؤك التى تسيطر عليك فتريك القبيح جميلا ، وتريك الجميل دميما .

أفهمت الآن أن الحرية ليست إلا كلمة ، وأنها فى الأغلب كلمة عديمة المدلول ؟ !

***

ومالى أكدر عليك صفوك بهذه الفلسفة ؟ إنك أيها الشقى تنتظر شيئا آخر ؛ إنك تحب أن أصف لك ملاهى باريس فى عيد الحرية . ولكنى لا أحب أن أكرر ما قلته في السنوات الماضية فتلك صور تراها فى كتاب «ذكريات باريس » ويكفى أن أشير إلى أن الناس هنا لا يزالون يحترمون مظاهر اللهو والعبث والشهوات وما ظنك برجل حاكم مسئول هو محافظ باريس حين يعلن إباحة الرقص فى الميادين العمومية ؟ وهذه الاباحة لها معنى ، فهى تصريح

باقامة المنكر الجميل والشر المحبوب ، هى تصريح بأن تتلاقى الأجسام والقلوب والأحاسيس أربعة أيام فى ساحات باريس ... وتلك مناظر ساحرة يخرلها غلف القلوب . والدنيا لاترى في فتنتها وزينتها كما ترى فى عيد ١٤ يوليه ، فوق أرض باريس وطن الحقائق والأباطيل ، والهدى والضلال . إن حياة ساعة واحدة يخلص فيها المرء من كل شيء فى مدينة هي بغداد القرن العشرين لأشهى وأجمل من حيوات طوال يقضيها المرء فى بلاد التزمت الجمود . إن الحياة ياصديق لاتقدر بالأعوام والسنين ، إنما تقدر بما فيها من المعاني . فان لم تفهم هذا فتذكر أن لحظة واحدة فى شواغل قلبية وحسية أنفع لك وأجدى على قلبك وروحك من كل هذا البقاء الطويل المملول الذى تقضيه فى شواغل لاصلة لها بالقلب والاحساس

أ كتب هذا اليك ، وليقل من شاء ماشاء ! وممن أخاف ؟ ومن هو الرجل الصالح الذى تفرض علينا تقواه أن نتحفظ فى الحديث ؟ إن أكثر الناس أشباه لصاحبنا « فلان » الذى اصطنع التوقر حتى عاد وهو من أشباه المتقين . وأقسم لو عرضت حياة « فلان » هذا فى الأسواق لما اشتريتها بدرهم واحد ! لقد حسب المفتون انه غنم وفاز حين استطاع تضليل الناس بالوقار المصنوع . إن الفوز الأكبر أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه ، أما هذه الصور التى لاتضحك ولا تعبس إلا وفقاً لشائع الأهواء والأغراض فهى أقل حياة من الدمى والتماثيل . وأين يكون أصحابنا هؤلاء من الدمى

والتماثيل وهى لم تصنع إلا لتمثيل مادق ولطف من وثبات العقول وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس .

كانت باريس ، ياصديقى ، فى تلك الليالى تذخر بأسباب اللهو والفتون ، وكان فى كل حى ، وفى كل شارع وفى كل حارة ، مرقص عابث يبعث أموات الاحياء . وكان ذلك كله يجرى فى رفق ولطف حتى لاتجد مايجرح ذوقك أو يشعرك بأنك تشهد ماينافى الحياء

ولا أدرى ، والله ، كيف كان يطيب لى أن أعود ثم أعود إلى المرقص الذى أقيم فى ميدان السوربون ؟ أكان ذلك لانى أحب أن أرى كيف يقام اللهو الصراح على أعتاب الجد الصراح ؟ وكيف وأقطاب السوربون قضوا شبابهم فى أمثال هذه السهرات ، وفى قلب السوربون تقام المراقص فى أعياد الشتاء !. .

أفأستطيع أن أحكم بأن الاخلاق ليس لها ميزان ، وأن الشر والخير مما يصبغ بالالوان المحلية فنرى حلالا هنا مانراه حراما هناك؟ تصور ذلك كيف شئت ، ودع الحياة تفعل ماتشاء

***

ولكن أكان اللهو والعبث والمجون هو كل ماشهدت باريس فى هذه الأيام ؟

هيهات ، فتلك علالات يتلهى بها الفتيان والفتيات ، ويأنس اليها من خلا قلبه من هموم السياسة وهموم المعاش . فالى جانب

المراقص العمومية كان أقطاب السياسة ينظمون عرض الجيش ليذكروا الشباب بأن مجدهم قائم على السيف والمدفع والنار والحديد ، ولو رأيت كيف تصطف الجنود فى حى الشانزليزيه أو كيف تجلجل خطواتهم فى ميدان الايتوال ؛ لعرفت أن فى باريس روحاً آخر هو روح الجد والفتك ، ولأدركت أن القوم لا يلعب فتيانهم إلا فى ظلال مايملك فحولهم من الطيارات والمدافع والأساطيل

وفى الأيام اللاهية العابثة التى طوقت جيد ١٤ يوليه كان أصحاب النواجذ من زعماء الأحزاب يشتجرون ويقتتلون ، وفى ساعات الرقص الملتهب فى مونمارتر ومونبارناس كان رجال من حملة الأقلام يلقون النار فيما ينفثون على بياض القراطيس ، وكانت الصحف تخرج إلى الناس وفى ألفافها السم الزعاف

فى تلك الأيام الماجنة أقيم المؤتمر الاشتراكى وثار فيه من العواصف مايزلزل الجبال

فافهم الآن ياصديق ، أن باريس ليست أمة واحدة ، إنما هى أمم مختلفة ، وإن شئت قلت ليست جمهورا واحداً ولكنها جماهير مختلفة فهناك جمهور الشباب وعشاق الشعر والخيال ، وهؤلاء يملأون الدنيا لهواً وعبثا ، وهناك جمهور الساسة ورجال الأحزاب الذين يوعدون وينذرون ويصرخون فى كل لحظة بأن الخطر على الابواب وهناك جمهور الملاك وأصحاب المصالح الذين لا يشعرون إلا قليلا بأيام المواسم والاعياد

ومن ائتلاف هذه الجماهير ينظم عقد باريس ، فهى ليست للهو وحده ، ولا للجد وحده ، وليس الأمر فيها للشبان وحدهم ، ولا للشيوخ وحدهم . وإنما هى دنيا يتعاون شبابها وكهولها ويأتلف فيها الجذع الباسق بالغصن الأملود

***

أما بعد فقد انقضت أيام العيد ولياليه ؛ ورجعت كما كنت آوى إلى فراشى قبل منتصف الليل ، وكنت فى تلك الليالى لاأصافح مضجعى إلا قبيل الصباح . فأين مضت تلك النجوم السواطع التى ملأت الدنيا نورا فى ليالى العيد ؟ أين ولت جيوش الصباحة والملاحة التى أزاغت الأبصار وبعثرت حبات القلوب ؟

لقد هدأ كل شىء بعد أن انفض السامرون ، فأين قلبى الذى زلزلته بروق الجمال ؟

عد إلى عشك ياقلبى ، فقد أوت إلى أوكانها أسراب الحسن وسكن الأليف إلى الأليف

إنى فى انتظار عودتك أيها القلب ، فمتى تعود ؟

إنى لأعرف أين أضعتك ، ولكنى لاأعرف أين يقيم من انتهبوك !

وأنت ياصديقى الذى تحيا بطلعته شواطىء النيل ، ألا تغنى أخاك هذا البيت الحزين :

ياليت ماء الفرات يخبرنا   أين استقلت بأهلها السفن

قبل الطعام والشراب (١)

أين عهد الهمجية ؟

أين عهد الانحطاط ؟

أين عهد الخمول ؟

رحم الله تلك العهود ؛ فقد حدثونا أن الحكومة المصرية : كانت تأخذ الأطفال قهرا من أيدى آبائهم ، وحجور أمهاتهم ، بين البكاء والعويل لتعمر بهم دور العلم التى أنشأتها لرحمة الأمة من بلايا الهمجية ، والانحطاط والخمول . وقد حدثونا أن الحكومة المصرية كانت تخرج الشبان من ديارهم ، لتبعثهم إلى العواصم الأوربية بالرغم من التمائم التى كان الآباء يعوذون بها أبناءهم من (التغرب فى بلاد بره !) وقد حدثونا أن الآباء والأمهات كانوا (يقيمون الولائم لأهل الله والأولياء ، ويوزعون الصدقات على المساكين والفقراء ويقرءون الفاتحة والصمدية و المعوذتين ثلاثمائة مرة عند الشروق وعند الغروب

كل ذلك ، ليرحم الله أولادهم من دخول المدارس ، ويقيهم شر السفر إلى لندرة أو باريس أو برلين ، فما كان الله وهو أرحم

(١) نشرت فى جريدة ابو الهول فى خريف سنة ١٩٢١

الراحمين ينظر إلى زفراتهم المحرقة ، وعبراتهم المغرقة . بل كان يعين الحكومة عليهم فيصبح أبناؤهم بالرغم منهم تلاميذ فى المدارس أو أعضاء فى البعثات العلمية !

فيارب وأنت الحكم العدل : إليك نشكو (وجودنا) فى عهد المدنية والرقى والنهوض ! لقد كان آباؤنا يساقون إلى المدارس سوقا ، فيتعلمون وهم راغمون ، كما يؤجر المؤمن رغما عن أنفه ! وهانحن أولاء نقاسى ألوان العذاب ، كلمااشتعلت فى صدورنا نيران الشوق إلى العلوم والفنون !

يارحمة الله لهذا القلب الحزين ! لقد قضيت بضع سنين وأنا ظامىء أترقب لعل طيف (الزمن الماضى) يطيف بى فجأة فأصبح وقد وجدت من مناهل العلم مايطفىء تلك النار التى تتأجج فى صدرى فلا تجد غير الرجاء من وقود ! وهأنذا أتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، فلاأجد غير أنداد فى التعاسة ، وأشباه فى الشقاء !

أيها الآباء والاجداد !

لقد كانت الحكومة فى عهدكم محسنة كريمة ، ولكنكم عددتم كرمها بخلا ، وإحسانها إساءة !

وهاأنتم أولاء تنظرون كيف انتقم الله للحكومة منكم ، فأغلق فى وجوه أبنائكم أبواب المدارس ، وحرمهم من البعثات العلمية والفنية ! فاقرءوا إن شئتم (الفاتحة والصمدية والمعوذتين) على أرواح أولادكم التى أماتها الجهل ، وقبرها الخمول ! لقد كنتم تبكون كلما ألزمتكم

الحكومة بارسال الاطفال الى المدارس ! وكنتم تعولون كلما سمعتم أن الحكومة ستبعث فريقا منكم إلى الحواضر الأجنبية ! فابكوا الآن حتى تنزفوا دموعكم كلما ضاقت عن أبنائكم المعاهد ويئستم من أن يروا — ولو فى النوم — منابع العلم فى برلين وباريس !

فيارب وأنت الحكم العدل : لقد قضيت أن لاتزر وازرة وزر اخرى ونحن أبناء هذا الجيل لم نعص أمر الحكومة ولم نهرب من المدارس ولم نفزع من الارساليات فكيف نؤخذ بذنوب آبائنا الذين أنكرنا عليهم ماتورطوا فيه إذ ذاك من كراهة التهذيب ؟

فان لم يكن بد من أن يؤخذ الأبناء ، بما جنى الآباء ، فانى أستطيع أن أثبت أن جدى رحمه الله أدخل أبى المدرسة وهو طائع ! وفى مقدور كثير ممن ضاقت فى وجوههم سبل العلم أن يبرئوا آباءهم وأجدادهم من (تلك الجناية) التى يحاسب عليها الأبناء والأحفاد ! فهل تتفضل الحكومة فتفسح المجال لهذا الفريق (البرىء) عسانا ننجو من بلية الجهل ، ونكبة الجمود !

نريد أن نتعلم ، لا تكفينا السلامة من العرى ، والظمأ ، والجوع لا نشكو ظاهر المرض ، ولكننا نتألم من الداء الدخيل ! إرحمونا من الداء العياء ! أغيثونا فكلنا ملهوف ! (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) ونحن أيتام العلوم والآداب ، فليرحمنا القائمون بالعلم فى هذه البلاد ، ليرحم الله أبناءهم من بعدهم

فلا يجدون ما نجد من اللوعة والغليل !!

يرحم الله هذه الأمة : فلقد كانت وكل همها أن تظفر بكفايتها من الطعام والشراب ، فأصبحت وليس لها غير هم واحد ، ولكنه هم معقد مقيم ؛ وهو أن تجد كفايتها من المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . وهى بعد ذلك ترحب بالفاقة ، إن صح هذا الحلم الجميل !

أما البعثات العلمية . . . ويلاه ماذا أقول ! اللهم لا تمتنى قبل أن أرى بعينى كيف يدرس العلم فى الممالك التى أصبح أهلها سادة الأمم وأساتذة الشعوب .

العمر الضائع (١)

فى الازهر والمعاهد الدينية

فى يوم الثلاثاء المقبل سيحتفل المصريون بذكرى الشيخ محمد عبده فى الجامعة المصرية !!

وأول مايمر بالخاطر ، هو مكان الاحتفال ، فقد نذكر أنهم احتفلوا بتأبين الشيخ حمزة فتح الله فى المكان الذى كان يلقى فيه دروسه العامة فى درب الجماميز ؟

(١) نشرت فى الافكار فى ٧ يوليه سنة ١٩٢٢

وليست الجامعة المصرية بالمكان الذى كان يلقى فيه الأستاذ الامام دروسه العامة ؛ ولكنه كان يلقى أبحاثه الممتعة فى الأزهر الشريف !!

فياعجبا ! أيضيق الأزهر على الشيخ محمد عبده فى الحياة وبعد الممات ؟ . .

لافرار من الحق ! إن الذين فكروا فى الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده هم تلامذته القدماء الذين ضاق بهم الأزهر ، ووسعتهم الجامعة المصرية

لقد تسكن النفس ، ويطمئن القلب ، حين نرى بأعيننا حياة هذا الرجل بعد موته ! — أليس هو القائل : وإن فناء فى الحق لهو عين البقاء ؟! صدقت أيها المصلح الجليل ؛ فانظر بعينك الآن من عالم الأبدية ، لترى من جديد (إن رحمت الله قريب من المحسنين !) إن للمجاهدين عبرة فى حياتك الأولى والثانية ، لقد مت وأنت تتسمع عساك تجد منصفاً يعترف لك بجميل ، فهل علمت أن الناس يعلنون عن أنفسهم بالحب لك ، والاقتداء بك ؟؟

(إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)

***

فى يوم الثلاثاء المقبل ستتقاطر جموع العلماء إلى دار الجامعة

المصرية فلنسمعهم هذه الكلمة عساهم يصلون إلى تلك الدار وهم خاشعون

لقدمرت السنون على وفاة الشيخ محمدعبده ، فهل قام فريق منهم فوقف وقفة المستبسل الجرىء ، فذاد عن المعاهد الدينية ، واقتفى أثره فى إصلاح الأزهر ، وتعديل برامج التعليم ؟

لقد عطلت الدروس شهوراً عديدة فهل انتفعوا بهذه العطلة فملأوا الخزائن ببدائع المؤلفات وروائع المصنفات ؟ ألم يعد الازهر كالطلل البالى لأنهم استبدلوه بالأندية الخصوصية حتى عطلت الجمعة فيه أسابيع كثيرة ؟ ألم يتركوا السذاجة تطغى وتستطيل حتى أعلن بعضهم فى الصحف السيارة أنه سأل الشيخ بخيت عن حكم التكلم فى السياسة ؟ ألم تنطق صوامت الموجودات وهم لائذون بالصمت والسكوت ؟؟

لا يقنع الأمة أن ترى من بين هؤلاء الجموع خمسة أو عشرة يكتب كل منهم بضع رسائل فى السنة ثم تطوى الصحيفة ويجف المداد !!

كنا سمعنا أن امرأة صالحة وقفت فى طريق الفخر الرازى فسألها الناس أن تفسح له الطريق فقالت من هذا الذى تحتفون به ؟ فقالوا رجل عالم أقام على وجود الله ألف دليل ! فقالت : ويحكم هل عميتم حتى تطلبوا على وجود الله ألف دليل !! — وكـــذلك يقتل الازهريون وقتهم فى إثبات وجود الله ، تعالى الله عما يصفون !!

نريد أن يتغير التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية ؛ نريد أن نكون أعزة وقد صيرتنا هذه التعاليم أذلاء ، نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الاسلامية ، حتى يغلب الجاحدون على أمرهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا أفواجا من حيث لايشعرون !!

نريد أن نمحو الوساوس التى دخلت فى العلوم العربية وأصول الفقه وعلم التوحيد ، ولايضيرنا أن يخمل بذهاب هذه الوساوس مئات المتصدرين فى العلم والدين ! فهل نحن واجدون من بين العلماء من يسمع هذه الكلمة التى اضطررنا اليها اضطرارا وألجأتنا اليها الغيرة على الدين الذى مات فى تأييده الآباء والأجداد ؟ ؟

الاحسان الى العقول (١)

كتب التاريخ فيما كتب ، أن الأمير عبد العزيز بن مروان كانت له اياد بيضاء على المعوزين فى مصر . ولازلت أذكر ماطربت له من وصف الاستاذ محمد بك الخضرى لذلك الامير الجليل حينما عرج على ذكراه فى الجامعة المصرية ، ولم يكن عبد العزيز بن مروان واحد الناس فى الكرم والافضال حتى أخصه بالطرب لما عمل ، والاعجاب بما صنع ، ولكن الذى انتشيت له إنما هو وجود باحة

(١) نشرت فى جريدة المحروسة فى نوفمبر سنه ١٩٢٠

سعيدة فى الديار المصرية ؛ ابتسم فيها الجود للعافين حينا من الدهر ومن ذا الذى لا يستروح لذكرى السعادة مرت ببلاده فقلت من غرب الشدائد ، ونالت من جانب الاحداث ؟

أجل ! كان ابن مروان موئلا للنفوس الحائرة أعواما معدودات ثم انطوى بره ، حينما انطوت أيامه ، ولم يبق من جوده بقية تفزع اليها النفوس الهاربة من الفقر ... وكذلك لم يبق من ذكراه إلا كلمات قلائل حفظت فى الكتب المنسية ! وذهب ما قيل فيه من جيد الشعر وبارع النثر ، وأكثر ما يعرف عنه أنه والد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وكان أولى أن يعرف بجوده الشامل قبل أن يعرف بابنه العادل

كذلك كان الناس فيما سلف : يعملون لليوم لا للغد ، ويحسنون إلى البطون لا إلى العقول ، اللهم إلا أفرادا كانوا يثيبون على الكتب المؤلفة وربما حبسوا شيئا من مالهم على المساجد يدرس فيها العلم ويذكر فيها ذو الجلال والاكرام !!

تلك أيام خلت ! وقد اكتفينا بما لدينا من التكايا والمساجد ووجب أن تتوجه العزائم إلى الأعمال التى تخلق الأمم خلقا جديدا وينال صاحبها من كرم الأحدوثة ما لا يذهب به كر الغداة ومر العشى ، ولن يتمثل ذلك إلا فى إنشاء المعاهد العلمية ، والعمل على تكوين العقول وتهذيب النفوس وأكثر ما يتضح ذلك فى العمل الذى قام به منشئو الجامعة المصرية ، التى أخذت منذ سنوات تبعث

العلم من مرقده ، فى هذه البلاد التى كانت نقطة الاتصال بين الشرق الناهض والغرب الهامد ، والتى لولاها ماحفظت علوم العرب التى كانت نواة هذه المدنية الفسيحة الأرجاء !!

إن الجامعة المصرية لم تعد فى حاجة إلى الاشادة بذكرها ليلتفت إليها الناس . ولم يكن أبناؤها بالقليلى العدد حتى يقول قائل ما الذى صنعته فى ترقية البلاد! ولكن كلمة واحدة تختلج بين شفتى من حين إلى حين وأريد أن أقول : هل يذكر كل قادم إلى الجامعة المصرية من منتسب أو مستمع أنه ضيف صاحبة السمو الأميرة فاطمه بنت اسماعيل تغمدها الله برحمته ، أو ضيف المرحوم حسن باشا زايد أو أحمد بك شريف ، ومن نحا نحوهم فى الخروج من بعض ما له لتشييد هذا المعهد الذى تفزع إليه العقول ؟ او هل يفكر بعض طلبة الجامعة من الذين قدر لهم أن يكونوا أغنياء أو ذوى دالة على الأغنياء أن يكثروا من أصحاب الأيادى البيضاء على هذا المعهد بما يبثونه من تبجيل من سهروا عليه وهو وليد ؟

أما أنا فلا أملك غير الوفاء ، وسأجعل لأولئك الكرام النفوس منزلة من قلبى تعز على من رامها وتطول . وليشهد الله و ملائكته والناس أن لكل من مد يده لمساعدة الجامعة المصرية دينا فى عنق قضاؤه الشكران

أين البيان والافصاح ؟ أين الشعر الجميل ، والنثر البديع ؟ أين شعر زهير فى هرم بن سنان ؟ أين مدائح البحترى للفتح بن خاقان ؟

اللهم إنى أعجز عن أداء ما على من واجب الثناء على أولئك الأمجاد فاكتب لهم عندك مايطربون لمرآه يوم يبعثون

قالت التوراة

فى باريس

صديق الاستاذ أحمد الزين

لقد رأيت أن أوجه اليك هذه الرسالة علها توحى إليك فى معناها فكرة جديدة تذكر القراء بما عرفوا من آثار فضلك ، وتسوقك إلى مناصرتى فيما أرمى اليه بهذا الحديث

وألفت نظرك أولا إلى أن (قالت التوراة فى باريس) جملة مفيدة مركبة من ثلاث كلمات لامن أربع . ولك أن تعربها هكذا : قالت التوراة مبتدأ ومابعدها خبر المبتدأ ، وأنت تعرف تفصيل الاعراب فلا موجب للتطويل ، ولك أن تسأل كيف اتفق لى أن أحكى (قالت التوراة) فأصيرها كلمة واحدة ؟ وفى الجواب أسوق القصة الآتية :

فى باريس كما تعلم ماشئت من المدارس والمعاهد والكليات .

ولـكن لاتحسب أن الحركة الفكرية والعقلية والروحية يقف نشرها عند حدود مايلقيه الأساتذة والمعلمـون فى دور التعليم !! لا. فهناك عشرات من المحاضرين يلقون فى كل مساء وفى أمكنة مختلفة عدداً من المحاضرات العلمية والأدبية والاجتماعية . ولهؤلاء المحاضرين جماهير تتسابق فى الاستماع اليهم إذ كان أكثرهم يعتمد على جمعيات منظمة تتنافس فى نشر ماتؤمن به من مختلف المذاهب والمعتقدات ، والدعوة إلى تلك المحاضرات لاتكون عن طريق الصحف كما هو المتبع فى مصر وإنما تجرى عن طريق النشرات الخاصة التى توزع على الجمهور فى نفس الأحياء التى يتكلم فيها المحاضرون ، فلا ترى هنا من السخف ماتراه عند بعض خطباء المساجد إذ يعلن فى الصحف السيارة عن خطبة سيلقيها فى مسجد سيدى الأربعين !

وقد كان أن وزعت فى بعض الأمسية نشرة مفصلة للدعوة إلى سلسلة محاضرات تلقى فى صالة الدراسات العليا بجوار السوربون . وكانت موضوعاتها شائقة ، منها : هل يشعر الأموات ؟ ومنها : هل تتكلم الأرواح ؟

ذهبت لاستماع تلك المحـاضرات فاذا رجل يلقى عظة دينية ، وقد حضر لاستماع عظته عدد غـير قليل من الرجال والنساء وكان يلقى السؤال ثم لايضطرب فى جوابه لأنه كان يفزع إلى التوراة فيستنطقها الجواب ، وكان الناس كلهم فى سكون وإنصات . أما أنا فكان يغالبنى الضحك كلما سمعته يقول قالت التوراة ، وكنت أقول

فى نفسى : ماعسى أن تصنع قالت التوراة فى باريس ، وخاصة بجوار السوربون ؟!

ثم مر أحد مساعدى المحاضر فأعطى كل جالس ورقة صغيرة وسأله أن يكتب عنوانه إذا كان يهمه أن ترسل اليه خلاصة المحاضرات مطبوعة ، فأعطيته عنوانى ، وبعد ثلاثة أيام تلقيت من ساعى البريد خلاصة تلك المحاضرات

ومنذ تلك اللحظة أخذت أتعرف إلى باريس من الوجهة الدينية وكان مفهوما عندى وعندك وعند أكثر المصريين أن باريس ودعت الدين منذ أزمان . وما كان أشد دهشتى حين رأيت أن أهالى باريس مؤمنون إلى حد التنطع والجمود . وقد عرفت بذلك أننا فى مصر خدعنا أشد خداع فى فهم فرنسا من الوجهة الدينية فان القوم لم يزالوا مؤمنين ، ولاتزال كنائسهم عامرة يغشاها جماهير عظيمة من الشباب والكهول . والخلاعة الفاشية فى باريس لاتشمل إلا طوائف قليلة من الشبان الفارغين الذين يعجزهم أن يقضوا أمسية الفراغ وأيام الآحاد فى عمل مقبول

وفى باريس جمعية كبيرة تسمى « جيش الخلاص » وهى جمعية دينية يقوم عملها على أكتاف عدد عظيم من الآنسات المهذبات وأولئك الأوانس ينقسمن إلى طوائف منظمة ، تذهب كل طائفة إلى حى من أحياء المدينة ، وهناك يقف ذلك السرب الأنيس ويأخذ فى إلقاء الأناشيد ، فيجتمع الناس من شيب وشبان ورجال ونساء

وهم فى غاية الطاعة والخضوع ، ثم تنبرى إحدى الأوانس فتلق بصوتها العذب إحدى العظات الدينية ثم تتبعها رفيقاتها واحدة فواحدة والناس يستمعون فى خشوع وسكون ، فاذا مضى على ذلك نحو ساعة صاحت إحدى الفتيات : من كان يؤمن بالله ويرى نفسه فى حاجة إلى الخلاص فليحضر الينا بعد العشاء فى المنزل رقم ١٨٤ بولفار سان جرمان ، ثم تكرر الرقم بصوت مرتفع نحو عشر مرات بطريقة تأسر النفس وتشوق الفؤاد

وليس هذا كل حظ باريس من النفحات الروحية ، فهناك الكنائس ، وهناك عظات أيام الآحاد . وقد رأيت أن أشهد بنفسى حفلة يوم الأحد التى تسمى « ميس » فتوجهت مرة إلى كنيسة مونبارناس وأخرى إلى كنيسة نوتردام

وحى مونبارناس حى خليع هو اليوم مزاحم قوى لحى مونمارتر ومع ذلك لم أجد مقعدا خاليا بالكنيسة حيث كان المصلون يعدون بالألوف ، ثم صعد الخطيب المنبر ، ولكن أى خطيب ؟ إنه رجل مثقف إلى أسمى حدود الثقافة ، يتكلم فى شئون دقيقة تمس الحياة الاجتماعية ، ولا يلقى الكلام على عواهنه كما يفعل أكثر الخطباء ، ولكنه يفترض أنه يعظ فى باريس وفى القرن العشرين ، لذلك تراه يتعمق فى نقد الأخلاق وتحليلها ، ورد كل رذيلة إلى أصلها من أهواء القلوب وأدواء النفوس . ويستعين فى شرحه بجميع ما وصل اليه العلم فى فهم الغرائز الانسانية ، وتكييف طبائع الناس ؛ وكان يتكلم

عن الأزمات الروحية والعقلية التي تصادف الرجال والنساء في بعض أطوار الحياة بافاضة شائقة تخترق ما أضمر واحتجب من سرائر السامعين

أما خطيب نوتردام فشعلة مضطرمة من الحيـاة والذكاء، والمصلون من حوله يجلون عن الحصر والاحصاء، وهو لايخطب سامعيه من أهل باريس فقط، بل تنقل خطبته عن طريق الراديو إلى سكان المقاطعات والأقاليم ! فحدثني بربك أتظن مع هذا أن فرنسا نسيت دينها وأقبلت بنفوسها وأهوائها على معالم الشهوات كما يظن أكثر الشرقيين ؟

أكتب هذا اليك وأنا خالى الذهن مما يسمى القديم والجديد فلست أحب أن أكون من أنصار القديم أو أشياع الجديد، وإنما يرضيني أن أكتب ما أعتقد غير ناظر إلى المحافظين والمجددين. وأنا أعتقد بصراحة أن الجماهير في جميع الأمم لابد أن يكون لها ضمير، وهذا الضمير يخلق في أكثر الشعوب مصحوبا بالدين؛ فلا بد للعالم من وازعين: العلم أو الدين. ومادامت الجماهير لاتصل إلى العلم الواسع الذى يحملها على فهم معانى الخير والشر فمن الاجرام أن تدعوها إلى التخلى عن الدين، فانه لابد لها من ضمير تعتصم به وهذا الضمير لايخلق إلا في ظلال الدين السمح أو العلم المتين

وكذلك ينقسم أهالى أوربا إلى قسمين فريق: العلماء الذى يعتمد على علمه في التفريق بين الخير والشر والضر والنفع؛ وفريق

الدهماء الذى يعتمد فى فهم الحلال والحرام على ماسنت الديانات والشرائع ، أو العادات والتقاليد

فتأمل هذا وانظر أين نحن من أولئك الناس فى سياسة الجماهير لقد أخذنا ننصرف عن تراثنا الروحى فى لهو وسخرية ، وقل منا من يتوجه إلى المساجد بقلب خاشع ، وطرف دامع ، وقد درجنا مع الأسف على تقدير أن من البدع أن تزخرف المساجد وتدخل فيها آيات الرفاهية . وحجتنا فى ذلك أن مساجد الأولين كانت خشنة لاترف فيها ولالين ، وفاتنا أن نذكر أن وسائل الأولين كانت قليلة وأنهم كانوا أفقر من أن يزينوا مساجدهم ويصيروها صالحة لاستقبال المترفين ، وهؤلاء المترفون هم أحوج الناس إلى الرياضة الروحية ؛ وهم قوة هائلة يحسب لها ألف حساب ، فمن الحزم وحسن التدبير أن نقربهم بشتى الوسائل إلى بيوت الله .

إن الموسيقا تعد أكبر جاذب لرواد الكنائس ، ونحن كما تعرف لم نألف رنين الأوتار فى المساجد ، ولكن لدينا مايغنى عنها :

لدينا تلك الأناشيد الروحية التى طالما هزت قلوب المصلين ، وأنا أذكر أنك كنت تختار جامع قيسون لتسمع الشيخ عبد الشافى ولعلك كنت تتأثر خطوات أستاذنا المرحوم محمد بك المهدى إذ كان يحب الصلاة هناك فهل تظن أن أولى الأمر فى وزارة الأوقاف يفكرون فى إغناء المساجد بالقارئين والمنشدين من أصحاب الأصوات

الرخيمة ؟ وهل تقدر أن صلاة التراويح فى رمضان تجد من الراغبين ما كانت تجد فى سالف الأيام ؟

ستقول: إن الزمن تغير ، ولكنى أقول لك : إن الناس هم الناس ولا تزال أرواحهم فى ظمأ تتلهف إلى من يسكب عليها قطرة من عصير الاخلاص، فمن للجماهير الاسلامية بمن يفكر فى ردها إلى تلك الآفاق العلوية التى حرمت جلالها وبهاءها منذ هجرت البيوت والمساجد ولجأت إلى القهوات والحانات.

لقد أكثر الناس من مطاردة الصوفية ، ولهم بعض العذر ، فقد كثر أدعياء التصوف حتى أفسدوا ما كان له من رونق وجلال ولكن هل من العدل أن ننسى أن الصوفية كانوا أخبر الناس بسياسة الجماهير ؟ إن الصوفية هم الذين حفظوا تراث الأولين ، وأذاعوا بين أتباعهم ومريديهم فكرة الحق والخير ، وحببوا اليهم التحلى بمكارم الأخلاق.

وقد تقلص ظل الصوفية من أكثر الاقاليم ، أفتدرى ما الذى حل بالاهلين ؟ لقد شاعت فى الارياف بدعة فتح القهوات ، وصار الفلاح يعرف كيف يمسك (الجوزة) وكيف يتحدث عن المخدرات وكان منذ أعوام يخرج من منزله فيصلى العشاء ويقرأ الاوراد ثم يعود إلى بيته فى طمأنينة وسلام . فأى الحالين خير ؟ وأيهما أجدى فى حفظ الصحة والعرض والمال ؟

لقد فكرت وزارة الاوقاف أخيرا فى تعيين طائفة من الواعظين

وإنى أؤكد لك أنها لاتفهم جيدا خطر هذه المهمة ، فان كبار الاشياخ يظنون أن الامر لايزيد عن إيجاد مرتزق للعلماء ، ولو أنهم عرفوا أن الواعظين يستطيعون أن يشغلوا الناس بأنفسهم ويحملوهم على التفكير فى معاشهم ومعادهم ؛ لرأينا لتلك الحركة الطيبة بوادر قوة ونهوض

أليس عمل الواعظين فى جوهره يرجع إلى إيقاظ ما خمد من النفوس ، وبعث ما اندثر من حرارة القلوب ؟ فأخبرنى إذن أين المؤلفات الجديدة التى تصلح لجماهير أهل الريف ، والتى تبث فيهم الثقافة الاسلامية بلا مشقة ولا عناء ؟

إن الوعظ لاتظهر ثماره إلا إذا رأينا الاهالى فى شغل بصقل أخلاقهم ، وإحياء ضمائرهم ، وتعهد أنفسهم ، وصيانتها من الكذب والغش والبهتان ؛ وتلك مهمة شاقة لايكفى فيها ذلك العدد الضئيل الذى عينته وزارة الاقاف

***

بقيت مسألة أحب أن أعرضها عليك ؛ هنالك كما تعلم أنواع من التسهيلات يعطاها الموظفون بسبب الفرائض الاسلامية . فهل ترى من الذوق أن ينتفع الموظفون بتلك التسهيلات دون أن يقيموا وزنا للفرائض ؟

هنالك التخفيف الذى يمنحه الموظفون فى شهر رمضان . فهل

من الذوق أن يستهين بعضهم بكرامة شهر الصوم ويتمتع فى مكتبه بالقهوة والدخان ؟ إن هؤلاء بين اثنتين : إما أن يحترموا الصوم وينتفعوا بالتخفيف ، وإما أن يحضروا إلى مكاتبهم فى الساعة الثامنة صباحا ولهم ما شاءوا من القهوة والشاى والدخان . أما هذه الوقاحة الاجتماعية فشىء تضيق له الصدور !

وكنت أحب أن أعرض للعطلة الظريفة التى يتمتع بها موظفو دار الكتب المصرية يوم الجمعة ، والتى تحرم الجمهور من المراجعة نحو ثلاث ساعات ، كنت أحب أن أعرض لهذا ، ولكنى أعرف أن موظفى دار الكتب أكثرهم أشياخ يحرصون على أداء الفريضة وليس فيهم رجل واحد يدخل فى زوايا القهوات فرارا من الصلاة !

إقرأ هذا ياسيد أحمد وتأمله ، ولا ترم أخاك بالجمود فانى لا أحب أن تعفو الديار المصرية من تقاليدها الحميدة ، لتصبح وليس لها ما تتأدب به إلا الروايات السخيفة يمضغها الشبان فى الغدو والرواح

وقد بينت لك أن أوربا لم تكفر حتى يطمئن إلى الكفر من يقلدونها فى كل شىء ، إن أوربا هى هى فى روحها وصميمها ، وكل ما تسمعه عنها من أخبار الهزل والبطالة والمجون لا يمثل إلا جانبا صغيرا لا يستطيع البقاء إذا جد الجد وجاء يوم النضال

على أن أوربا تعذر إذا لهت ولعبت فأولئك قوم كادوا يجنون من الجد والنشاط ولا بد من الاستجمام ، أما نحن فما عذرنا وقد أقبلنا على الشهوات دون أن يكون لنا بين الحازمين مكان

إنه لامانع من محاكاة أوربا فى لهوها ولعبها ، على شريطة ان يكون لنا ما لها من مغارم المجد ، وأن نشقى كما تشقى فى خلق أسباب الظفر والقوة ، وأن نقاسمها الجد فى السيطرة على أقطار الأرض ومسالك الهواء

والسلام عليك ياصديقى وعلى من لديك من أفاضل الزملاء

٢٦ ديسمبر سنة **١٩٣٠**

ليـــلة وليـلة

أزهرى يصف المرقص

رأى الكاتب المرقص الحديث لأول مرة وهو شيخ يلف على رأسه العمامة ويرتدي الجبة والقفطان ، وكان ذلك فى أوائل سنة **١٩٢٢** فكتب فى وصفه هذه الرسالة الساذجة التى تمثله وهو يفتح عينيه على فتن الوجود فى دهشة وانجذاب

صحبت عفريت الليل [١] » الى حفلة راقصة فى مصر الجديدة ، وكنت مدعوا لهذه الحفلة كما دعيت لأختها من قبل فى شارع عماد الدين ، وقد غالبت حيائي عند إجابة الدعوة الأولى ثم غالبته عند إجابة الدعوة الثانية : وخلقت لنفسى ماشاء الهوى من شتى المعاذير!!

---

(١) هو لقب الصحفي مصطفي اسماعيل القشاشي وكانت مشاهداته تذيل بهذا الامضاء

وإنى لمحدثك عن المرقص الأول والمرقص الثانى ، تلبية للصديق العزيز عفريت الليل ! ولكنى أتقدم هذا بأبلاغك ماجال فى خاطرى عند تسلم بطاقة الدعوة ، فقد أعرف أنى شيخ وأعرف أني فى نفسى من حماة الدين الحنيف ، والله عليم بذات الصدور ، ولكنى تذكرت بجانب ذلك أنى صحفى ، وأن المهنة تقضى على بارتياد مواطن الشبهات ، ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس ، ولأقابل بين ماأراه على لوح الوجود وما أراه على لوح التاريخ !! وعندى أن الصحفى كالطبيب : فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ما تستر المرأة ليقف على موقع الداء يجوز للصحفى أن ينظر أغرب ماتكتم الأمة ليقف على موطن الداء . ولا فرق بين هذا وذاك . إلا أن الطبيب يعالج الجسوم والصحفى يعالج العقول . فمن الجناية أن يتورع صحفى أو طبيب عن الوقوف على بواطن الأشياء . وهو عن فهمها مسئول !

وتذكرت أني كاتب ، والكاتب كالمصور ، لاغنى له عن رؤية كل مكنون ، ولن يعذره أحد إذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة والعجائب المكنونة بحجة الدين والأخلاق ، لأن الفنان لادين له إلافى قرارة نفسه ، ولاخلق له إلافى أعماق ضميره ، وهو غالبا فاسق النظر فاجر البيان !!

ولئن جاز للطبيب أن يحجم عن إسعاف المريض إشفاقا على نفسه من رائحة الجراح القديمة ، فقد يجوز للكاتب أن يحجم عن

تعرف داء الأمة رفقا بنفسه من مطالعة آثار الرذيلة، ولكننا نعرف أن الطبيب يجرم أفظع جرم إن نفر من رائحة الجروح ، وليس جرم الكاتب بصغير إن نفرته مناظر الفاحشة عن درس الأصول الأولى للفاقة والبأساء ، وكما أن الطبيب يمضى في العملية الجراحية غير حاسب أى حساب لما يسديه اليه المريض من الشتائم كلما آلمته المشارط ، فان الكاتب المخلص يضع (سمعته) نهبة لشتائم الصارخين من مرضى النفوس ، وكلما آلمهم قلمه فسبوا وشتموا تذكر أن القلم فى يده كالمبضع فى يد الطبيب ، وأنه يجب أن ينسى نفسه ، وأن يعرف أن عدوه هو المرض الذى يحاربه فى شخص المريض ، وأن هذا المسكين لا يشتمه بصدق ، وأنه سينظم له عقود الثناء بعد ذهاب الداء

***

كانت الليلة الأولى فى شارع عماد الدين ، وكانت الليلة الثانية فى مصر الجديدة ، وكنت فيهما ذلك الفارسى الذى تخيله (مونتيسكيو) يجوس خلال باريس ، فينكر الناس ما له من زى غريب ، وينكر ما للناس من خلق غريب !

دعانى للمرة الأولى حسن افندى فائق لاسمع أنشودته فى صريع الكوكايين ، فأجبت الدعوة كارها غير طائع ، ولم أكد أدخل الملعب حتى التهمتنى العيون ، فمن قائل جاء ليلقى عظة فى النهى عن

الموبقات ، ومن قائل ياعجبا للهو لم ينج من عدواه المعممون !!
فصحت فيهم إنما جئت لمقابلة حسن افندى فائق صاحب أنشودة
«شم السكوكايين» !! فتقدم إلى بعض العاملين فى المسرح وقال : لقد
انصرف حسن افندى ، وقد يعود بعد قليل ، فان شئت شربت
فنجانا من الشاى وانتظرته حتى يعود ، وكانت الليلة شاتية ، وكان
الشاى فيها خير مشروب فأخذت أتخير مكانا بعيدا عن «همسات»
الحاضرين وغمزات الحاضرات !! وماهى إلا لحظة حتى صرخ صارخ
«اضبط ! هذا صاحب مدامع العشاق !» فالتفت فاذا عفريت الليل
عن يمينى ، وابن الهوى عن شمالى ، كأنهما منكر ونكير ، أورقيب
وعتيد ! قال عفريت الليل : من أتى بك ههنا ؟ فقلت وأنت من أتى
بك ههنا ؟ قال ، أنا صحفى أحرر جريدة أسبوعية ! فقلت وأنا صحفى
أحرر جريدة يومية ! فما لك تشاركنى فى الفعل وتفردنى بالعجب ؟
ثم دعانى إلى تناول الشاى معه فى مكان من الراقصات قريب !

جلسنا نتحدث ، ولكنى منحته أذنا غير واعية ، وأقبلت
بسمعى وبصرى وقلبى على تلك القطع المختارة من شعر الوجود ،
فان النساء ياصاح قصائد مسطورة فى سجل الحياة ، وأصحاب المراقص
يتخيرون من هذه القصائد أعلقها بالنفس ، وألصقها بالقلب ، وقد
خيل إلى ساعتئذ أنى لم أحضر إلا لدرس هذه الطرف البديعة لأتبين
السر فى « ضلال » من فتنته الخدود ، وسحرته العيون ، ولأعذر
قتلى الحسن ، وصرعى الجمال !

رأيت من بين الراقصات فتاة فرنسوية ، وأخرى إسبانية ، وثالثة مصرية ، وقد رأيت الفرق واضحا بين هؤلاء الاوانس ، وأظهر مايكون الفرق فى الحركات . فللفرنسويات والاسبانيات حركات فى الرقص تشبه حركات الجنود فى ميادين الحروب ! ولا هم لهؤلاء الفتيات حين يظهرن على المرقص إلا أن يبهرن الأنظار بخفة الحركة وسرعة الدوران ، فى حين أن الراقصة المصرية لا هم لها إلا لفت الأنظار إلى خصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وخـــدها الأسيل وطرفها الكحيل :

ترنو فتنقلب القلوب للحظها مرضى السلو صحائح الأوصاب

ويحسب الرائى رقص الافرنج نوعا من الألعاب الرياضية ، إذ يرى الراقصات يتثنين بسرعة كأنهن ثعابين ، ويختفين بسرعة كأنهن شياطين ! ولا تكاد الراقصة تبدو حتى تختفى فيحسب مثلى أنه كان فى حلم وأن ما رآه طيف خيال !! ولا يكاد الملعب يخلو من تلك الغادة اللعوب ، حتى يقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : أى شمائل هذه الغادة أروح للنفس وأمتع للعين ؟ فمن قائل شعورها الذهبية ومن قائل خدودها الوردية ومن قائل ثناياها اللؤلؤية ، ويسألنى (عفريت الليل) مارأيك فى هذه الفتاة ؟ فأعتذر ، فيعيد السؤال فأكرر الاعتذار ، فيلح ، فأقول ويحك لم أرمنها شيئا ، لقد مرت كالبرق الخاطف ، فان شئت هاتها بين يدى ، أتأملها قطعة قطعة ، كما أتأمل القصيدة بيتا بيتا ، وكما أتأمل الرسالة فقرة فقرة ، وكما أتأمل

الكتاب بابا بابا ، ثم أحكم أى ملامحها أحق بأن تسهد من أجله العيون ، وتعذب فى حبه القلوب !!

أما الراقصة المصرية فهى ملك كل عين ، وطوع كل قلب ، إذ تخطر فى المرقص ، وكأنها الغصن الرطيب ، يعبث به النسيم العليل ، تقبل فاذا هى هيفاء ، وتدبر فاذا هى عجزاء ، وترنو برفق إلى كل ناظر ، فيحسب كل امرىء أنه مرمى طرفها الناعس ، ومهوى قلبها الخافق ، فيمسى وهو صريع !! وقد تتغنى وهى ترقص ، فيروقك ماتسمع وماترى ، حتى لتحسب أنها آلة موسيقية ، صورت من ماء اللؤلؤ ، أو صيغت من نهود الكواعب ، ثم تثوب إلى رشدك ، فتذكر أن هذه ليست آلة موسيقية ، بل هى إحدى اللواتي كان النيل يغضب قديما فلا يرضى حتى يضم إلى صدره واحدة منهن مفلجة الثغر ، وضاحة الجبين !!

حوراء إن نظرت اليـــك سقتـــك بالعينين خمرا
تنسى التقى معـــاده وتكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حـــديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخـــال ما جمعت عليـــه ثيابها ذهبـــا وعطرا
وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا

وتطيل الراقصة المصرية فى التثنى ، والتغنى ، حتى تهيج المشاعر والحواس ، وحتى يقبح الهدى ، ويجمل الضلال ، ولا كذلك

الراقصة الافرنجية ، فانها تخطف البصر ، ثم تغيب . وقد تتغنى ولكنها تقتصر من الكلمة على حرف واحد ، ومن القصيدة على بيت واحد ، ثم تفر قبل أن تنقع الغليل !!

كيف السبيل إلى اقتناص غرائر　　يدمى بأسهم لحظهـــا القناص

بيض السوالف عذبة أفواهها　　ريا الروادف والبطون خماص

يجرحننا بنواظر ما إن لنـــا　　منهن عند جراحهن قصاص

ولم أجد هذا الفرق البعيد بين الراقصة المصرية والافرنجية إلا فى مرقص عماد الدين ، ففيه تظهر الفوارق بين النزعات الشرقيه والغربية . وكل حزب بما لديهم فرحون !

***

الليـــلة الثانية

أما مرقص مصر الجديدة ـ وياويلتاه من مصر الجديدة ـ فهو خاضع للبدعة الفرنسوية ، لاتكاد الموسيقى تصدح حتى تنتظم العذارى كأسراب الحمائم راقصات شاديات !

من بنات الروم لايكذبنا　　لونها المشرق عن منصبها

فهى حسب العين من نزهتها　　وهى حسب الأذن من مطربها

تشرع الألحاظ فى وجنتها　　فتلاقى الرى فى مشربها

وإذا قامت إلى ملعبها كمهاة الرمل فى ربربها
سألت أعطافها أردافها هل رأت أوطأ من مركبها

وكأن الحسان فى هذا المرقص، لايستطعن الرقص منفردات وكأن أقدامهن الصغيرة، لايستطعن حمل أردافهن الوثيرة! فلكل فتاة فتى يطوق بيمناه خصرها النحيل، ويسند بيسراه خدها الأسيل ثم يسير بها ضاحكة الثغر، ناعسة الجفون. وكل فى فلك يسبحون!!

ياليت شعرى وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمر مراد بالفتى جمعت تلك الفنون فضمتهن أفنان
تجاورت فى غصون لسن من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكمتها نعم وبؤس، وأفراح وأحزان
ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقران
مناضلات بنبل لا تقوم له كتائب الترك يزجيهن خاقان
يارب حسانة منهن قد فعلت سوءا وقد تفعل الأسواء حسان
تشكو المحب وتلفى الدهر شاكية
كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

وهذا المرقص ملتقى المحب والمحبوب. وليس العاشق فى حاجة إلى أن يكون كابن المعتز حين يقول:

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكمو سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدى مايقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا

بل يكفى ان يتخذ له سحنة صناعية ، وأن تضع المعشوقة خرقة سوداء على وجهها المشرق الجميل كما يحجب البدر بالسحاب ، أو كما تحجب الشمس بالضباب . ثم يتلاقيان : فلا يعرفهما رقيب ولا يشعر بهما حسيب !!

وربما نظر امرؤ إلى فتاة فاطلع منها على كل مغيب مكنون — «إلا الوجه الكريم» فتبعتها نفسه ، وعلق بها فؤاده ، وقد تكون أخته وما يدرى !! لأن « أقطاب » هذا المرقص يبدلون خلق الله ، فيلبس الأمرد لحية بيضاء أو زرقاء وتتخذ الفتاة لوجهها من سود البراقع ماتشاء ، وما ضر الفتى والفتاة أن تحجب من وجهيهما آثار الجمال مادام الخصر على الخصر والساق على الساق !

ولو كنت معنا هناك لفزت فوزا عظيما فقد حشرت فى تلك البقعة فنون الملاحة وألوان الفتون . كما تحشر ضروب السحر فى الطارف الغضيض ! وكان (عفريت الليل) يوصينى بوصف تلك الليلة قبل أن تعزب عن البال ! رويدك ياصاح ! وكيف تنسى ليلة هى أنموذج لنعيم الجنة دار الخلود ! وهل أنسى أنى ما نظرت أمامى أو عن يمينى أو عن شمالى إلا رأيت الحسن منثورا نثر النجوم الزهراء فى القبة الزرقاء ، أو نثر الزهور البيضاء فى الروضة الغناء ؟

لما مشين بذى الأراك تشابهت   أعطاف قضبان به وقدود
فى حلتى حبر وروض فالتقى   وشيان وشى ربى ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقها   وردان ورد جنى وورد خدود

وضحكن فاعترف الأقاحى عن ندى
غض وسلسال الرضاب برود

ولحظة واحدة ، فى تلك الجنة العالية ، تنسيك الدين والأخلاق ويكذب ثم يكذب من يزعم أنه لم يحسد أولئك الذين أنعم الله عليهم فخاصروا من يعشقون على مسمع من الرقيب ومرأى من الحسود !!

ألا ليقل من شاء ماشاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

ولم يكن الحسن فى ذلك المرقص قاصرا على الراقصات . فقد كان الفندق يموج موجا بالرائحات الغاديات

من كل ضاحكة الترائب أرهفت إرهاف خوط البانة المياس
فاذا مشت تركت بقلبك ضعف ما بحليها من كثرة الوسواس

وما زلت أحدق عينى فى كل رائحة وغادية حتى تألمت عيناى فكأنما أطالع ذكاء فى كبد السماء، وكنت كلما بهرتنى الثغور الضواحك وأسرتنى العيون الفواتك ، أفكر فى جناية الجمال ، على عشاق الجمال وعلى أهل الجمال . ثم أفكر فى فضل الجمال ، على أعداء الجمال : ففى العالم مئات الألوف من القسيسين والرهبان والعلماء تصرف عليهم المرتبات لأنهم يقلون الخطب الرنانة فى ذم الجمال ، وأهل الجمال ، وعشاق الجمال !!

مر بخاطرى ذلك وأنا فى فندق هيليوبوليس فعرفت أنه كلما وجدت الرذيلة ، وجد موجب للدعوة إلى الفضيلة ، ووجد الوعاظ

ما يأكلون . ثم استسلمت إلى التفكير العميق !!

والآن فى الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد مضى على تلك الليلة ست ليال ، أفكر من جديد فى جناية الجمال ، على عشاق الجمال ، وعلى أهل الجمال ، ثم أطيل التفكير فى فضل الجمال ، على أعداء الجمال !!

تعرض رسل الشوق والركب هاجد
فتوقظنى من بين نوامهم وحدى
وما شرب العشاق إلا بقيتى
ولا وردوا فى الحب إلا على وردى

الازهر الشريف

— ١ —

فى نهاية السكة الجديدة ، من الناحية الشرقية ، على يمين السائر حارة ضيقة توصل إلى مسجد جامع عتيق : هو الأزهر الشريف

لاخلاف بينى وبين أهل مصر ، فى أن هذا هو الأزهر . فقد زاره بعضهم لطلب العلم وزاره آخرون ابتغاء الاستطلاع . ومن لم يره منهم لا يجهل أنه فى هذا الموضع وعلى تلك الحال

ولكنى على يقين من أن الأجانب فى شك منه ، فانهم يسمعون فى بلادهم أن الأزهر أكبر الجامعات الشرقية ، ومن أعظم المساجد

الجامعة الاسلامية، وأنه إن لم يكن أجمل مكان فى الشرق فهو جدير بعناية الأمراء ، ورعاية العظماء ، فلا بد أن يكون قريبا من جامعات برلين ومدارس مونبلييه ؛ وما إلى ذلك من تلك المعاهد ، التى ورثت عن منشئيه العلم، وتلقت عن مبدعيه البيان

لا يهمنى أصدق الأوربيون أن هذا هو الأزهر إيمانا باغفالنا له وانصرافنا عنه، أم حسبوه مكانا غير هذا المكان ولو فى سماء الخيال ظنا منهم أن المصريين أكرم من أن يهملوا مسجدا جامعا مثل هذا المسجد الجامع وأجل من أن يغفلوا معهدا كهذا المعهد

نعم لا يهمنى ذلك لأنى لا أشك فى أن هذا هو الأزهر الذى نفتخر به ، ونغضب له ، وإن كنا عنه معرضين

تدخل فى هـذا المسجد الجامع فلا يروقك فيه شىء ، أرض منخفضة وسقف غير مرفوع ، وأعمدة قصيرة كأعمدة المقابر ؛ وحيطان قاتمة ، كحيطان الأجداث ، ونوافذ بخيلة بالضوء ضنينة بالهواء ومصابيح ضئيلة ، لا تقتل الظلمة ، ولا تكشف الغمة ، وهو أحوج إلى أكبر منها فى النهار المبصر . فكيف به فى الليل المظلم ! لا فرش له إلا الحصير الممزق والتراب المكدس . والناس فيه ما بين آمل غير واجد ، أو زارع غير حاصد ، لا طمع لهم فى مناصب الحكومة ولا أمل لهم فى إسعاد الأمة ، وقد يئسوا من إنصاف الوزراء وإنجاد الأمـــــراء

ثم تراهم لا يصدقون أن لهم شيوخا يعطفون عليهم ، أو رجالا

يرأفون بهم، فهم لايعرفون آباء غير آبائهم ، ولاأعماما غير أعمامهم
وكذلك ينكرون جميعا قول الشاعر :

أقدم أستاذى على نفس والدى
وإن نالنى من والدى العز والشرف

فذاك مربى الروح والروح جوهر
وهذا مربى الجسم والجسم كالصدف

إنهم لايعرفون هذا الشعر ، لأن الشيخ الذى سلف ، والشيخ الذى خلف ، لم يرفعا عنهم شيئا من الضر ، ولم يسوقا إليهم نوعا من الخير ، فهم اليوم مثلهم بالأمس ، أكثر شقاء وهما ، وأكبر عناء وغما ، لأنهم يرون الناس فى تقدم ويرون أنفسهم فى تأخر ويرون المدارس يعمها العدل ، والأزهر يخصه الظلم ، ثم يرون لكل شهادة أثرا فى الحياة وقيمة فى الوجود ويرون شهادتهم ورقة لا كالورق فهى مزينة ولكن بالمواعيد الكاذبة ومزخرفة ولكن بالأيمان الحانثة ، حتى كأنها قطعة من معاهدة الصلح لايضمن لمن أنصفته سلام ولا يرجى لمن نصرته قيام ، وكأن مجلس المشيخة هو مجلس الشيوخ ، وهم قد شبعوا من المجد الموهوم ، والشرف المعدوم فما عادوا يصدقون بأن شهادة الأهلية أو شهادة العالمية حرز من الفقر وأمان من الدهر

ثم هم فكروا طويلا فى انتسابهم إلى الأمة المصرية والسلالة

العربية ، ولولا أن الأجانب يصفو عيشهم على ضفاف النيل ، وفى سفح الأهرام ، لظنوا أنفسهم من الجاليات الأوربية أو الامريكية

وقد بحثوا كذلك فى سبب شقائهم ومصدر بلائهم فلم يهتدوا إلى موجب صحيح أو داع معقول . اللهم إلا حياء ظنه الناس من الجبن ، وحلما حسبوه من الذلة ، وهم لا يستطيعون أن يرجعوا ذلك إلى حبهم للوطن ، وعشقهم للحرية ، وبغضهم للظلم ، فان ذلك مشترك بين عامة الناس وشائع فى كافة الأجناس

فلم يبق إلا أن يكون الأزهر شقيق الهم ، وحليف الغم لا يدخله امرؤ إلا تقوس ظهره ، وتقوض عمره ، ولا يفزع إليه فتى إلا تزعزع كيانه ، وتضعضع بنيانه

وهو بفضل إغفال الحكومة جدير بأن يقتل كل شاب تضمه جدرانه ، ويذهب بكل بصر ينظر فيه صفحة من كتاب ، أو فقرة من خطاب ، وكذلك لن يزال بفضل الشيوخ ، مبعثا لظلم العواطف ، وقتل المشاعر ، يقرأون فيه العلم ، فيتعرفون به الظلم ويتدارسون فيه أخبار الأسلاف ، فيئنون من جور الأخلاف

كانت مدة الدراسة فى الأزهر الذى وصفناه اثنى عشر عاما فرأت المشيخة أنها لا تكفى لتضييع العمر ، وتقويس الظهر ، فزادتها أعواما ثلاثة ، فصارت خمسة عشر

من هذا يشكو إخواننا طلبة الأقسام النظامية ، في المعاهد الدينية ، وقد رأت لجنتنا الجديدة ، أن لا تنام لها عين ، ولا يهدأ لها

قلب حتى ترجع المشيخة عن هذا القرار الظالم ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه

— ٢ —

إن طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة : فهم فى سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة ثم إذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل والهم الجزيل دخلوا فى حياة لا حظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، فى ميدان كله رماح طوال ، وسيوف صقـال . . . وهل بعد ذبول الأغصان ، وكلال الأجفان ، وتقوس الظهر ، وتقوض العمر ، غرض يرجى نواله ، أو هم يبتغى زواله !

هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا يملأون البلاد علما وحكمة لو أتيح لهم التغلب على مصاعب النظام القديم والحديث . هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا مادة الحياة العلمية فى عصر الظلمات ، وهم أصل النور فى هذا العهد الجديد ، هؤلاء الأزهريون ينادون بملء أفواههم : أن خذوا بيدنا أيها القائمون بالأمر ، فلا يستمع لهم أحد ! ولكن أيغلب اليأس الرجاء ، ويغدو الأمل صريع القنوط ؟ إن هذا لبعيد .

— ٣ —

نقول الآن — وسنظل على هذا الرأى حتى حين — إن النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهريين فى الزمن القديم أو الحديث ، ليس أثراً من آثار الادارة التى تولاها زعماؤه الأقدمون أو المحدثون ، ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هيأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية ، وأن يشاركوا جمهور المبدعين فى العلم والأدب ، وأن يتركوا لأنفسهم أثراً يذكرون به فى العالمين .

فان كنت فى شك من صواب هذا الرأى؛ فاقرأ إن شئت تاريخ الأستاذ الامام محمـد عبده ، وانظر كيف تأثر بالتعاليم الحديثة حتى صار علماً يهتدى به ، أو احضر دروس الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى لترى كيف استعان الفلسفة الحديثة ، لفهم الفلسفة القديمة ، أو خالط النـابغين من علمـاء الأزهر الآن ، فانك لن ترى نبوغهم مصبوغا بصبغة العلوم التى يتلقونها فى ذلك المعهد القديم ، بل تراه مطبوعا بطابع الزمن الذى يعيشون فيه ، والذى كان يجب أن يكون التعليم فى الأزهر مصبوغا به، ومطبوعا عليه ، لو وجد هذا المعهد من يعنى به من زعماء الاصلاح

فى الأزهر الآن جمـاعة من عشاق النهوض ، تراهم إذا زرته

الجامعة المصرية ،أو مدرسة الأزهر الفرنسوية ، تراهم فلا تشعر بغير الاعجاب بهم والاعظام لهم ، ولكنك تشعر بعد ذلك بكثير من الألم الممزوج بالاشفاق؛إذا قيل لك إن هؤلاء قد يحسبهم زملاؤهم وأشياخهم غير مهتدين !!

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر　　لنفسى تقاها أوعليها فجورها

هؤلاء الشواذ — فيما يرى بعض الشيوخ — هم زينة الأزهر فى القديم والحديث ، وهم الذين اضطروا القائمين بالأمر فى المعاهد الدينية إلى ان يتأملوا قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « علموا أبناكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وهم الذين تذهب نفسهم حسرات كلما رأوا وقوف الأزهرعند مبدئه العهيد ، وشهدوا الزمن يمشى بأهله إلى ذرى المجد الشامخ ـ الا إن التقدم حركة ، فويل للواقفين !

كل مافى الأزهر من علم وكل مافيه من أدب ، إنما هو من آثار الذكاء الذى قبره الزمن فى تلك البقعة المحجوبة عن النور والضياء وليس لتلك الادارة المهدمة الجوانب غير ما نراه من عموم الجمود وشمول الخمود ! فتى يبعث الله لهذا البيت العتيق من يأخذ بيده من تلك الهوة التى تردى فيها بفضل ما لأبنائه من عقوق ؛ ومتى يتحقق الأمل فى عشرين ألفا من الرجال ، قضى عليهم الجد العاثر والنجم الآفل ، أن يكونوا وقوداً للهيب الهمجية ؟

اللهم غفراً !! يزهر العلم فى كل باد ، ويتقدم أهله فى كل قطر

ويكون حظ الأزهر من بين جامعات العالم كحظ مصر من بين الأمم . ثم يعيش الأزهريون عيشة النائمين : لاهم أحياء فينتفعوا بما فى الكون من مظاهر الحياة ، ولا هم أموات فيحظوا بما بعد الموت من نعيم !

تلك آمالنا قضى عليها الاهمال ، وهذى آلامنا يضاعفها إصرار (المصلحين) على دفننا أحياء في تربة اليأس القاتل ، ولكننا سندفنهم بحول الله فيما ندفن من بقايا الخمول ! فهل أدلكم على سبيل النجاة أيها الرفاق المتألمون ؟

عليكم بالنظر فى كتب المتقدمين من الشرقيين ، والمتأخرين من الغربيين ، ثم اتركوا الحثالة التى جاءت بين هذين العهدين لحضرات الزاهدين فى التجديد ، إنكم إن فعلتم ذلك ظهرتم عليهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

— ٤ —

لقد آن للأمة المصرية أن تنظر فى نظام الأزهر ، وحياة الأزهريين فانه لم يبق شيء من خرافات العصر المنصرم ، يوم كان الناس يظنون أن الأزهر باب الرحمة ، ويوم كانوا يحسبون أن الجلوس فى حلقات العلم ضمان من الفقر وأمان من النار ، ويوم كان العامة ينسبون لشيخ الجامع حركات الأفلاك ونظام الكواكب كل ذلك قد تبدل ، وأصبح الناس أمام أمر واقع ؛ وهو أن الأزهر

معهد علمى يجب أن ينال من الأنظمة النافعة ما يضمن له البقاء والثبات

جالس من شئت من العلماء ، وحادث من أردت من الطلاب فلن تجد غير اليأس القاتل ، والهم الشامل ، ولن ترى لهم من أمل فى غير الحياة الثانية وهم الذين خلقوا ليكونوا زينة الآخرة والأولى

هل تتفضل المشيخة الجليلة فتريننا قائمة الأعمال التى أصلحت بها نظام الأزهر فى العهد الأخير ؟ وهل يتفضل القائمون بالأمر فيفصحوا لنا عن نياتهم فى الاصلاح المنشود ؟ وهل هم جماعة منهم بدرس نظام الجامعات حتى يعرفوا ما هم عليه ، وما يحتاجون اليه ؟ وهل راقبوا الله فى النفوس التى قضى عليها أن تكون تحت إدارتهم ؟ وهل فكروا فى نتائج التهاون الذى يرتعون فى أرجائه الفسيحة ؟ ثم هل آن لهم أن يعرفوا أن الأزهر إنما أنشىء ليكون مصدراً للسعادة لا منبعاً للشقاء ؟ !

أيروقكم أن نحسبكم مشغولين بما أسبغ الله عليكم من النعمة كما يتحدث بذلك من يتأمل فى حاضر الأزهر وماضيه ؟ فهل أنتم ناظرون فيما منى به هذا المعهد من التأخر والانحطاط ؟ وهل تبيض وجوهكم أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ بما تعتزمون المضى فيه من إلحاق الأزهر بالجامعات التى سامته فيما سلف حتى سمت عليه ؟ وهل نجد فى المستقبل الباسم ، ما ننسى به هذا الحاضر العابس ؟

لقد طفح الكيل ، وأغرقت الأمانى فى بحور اليأس ، وأصبح

الأزهريون وكأنهم من أمة غير هذه الأمة ، وقطر غير هذا القطر وإلا فلماذا يحرمون وحدهم مما يتمتع به غيرهم من الأمل الضاحك والعيش النافع ؟

هذه كلمات نكتبها ونحن آسفون ، وكنا نود لو أن شيوخنا أغنونا عن التفكير في غير العلم ، ولكنهم أرادوا ألا نقرأ صحيفة في كتاب إلا ونحن محزونون ، وأن لا نخط سطراً في صحيفة إلا ونحن متألمون !

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى   عليهم وهل إلا عليك المعول

— ٥ —

رغب المسيو فرناند فور الأستاذ بجامعة باريس ورئيس الجماعة التي استقدمت لامتحان الحقوق الفرنسوية بمصر أن يزور الأزهر الشريف فسألني حضرة أستاذي المسيو باباني المحامي ان أرافقه في هذه الزيارة فقبلت ذلك ، واقترحت تأخير الزيارة أسبوعا حتى يعود الطلبة إلى الدروس وكانوا إذ ذاك في مسامحة المولد النبوي وحددنا للزيارة يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٠ في اليوم الثاني من عودة الدراسة وكنت أظن أن الدروس إن لم تكن تكاملت في اليوم الأول فلا بد أن تتكامل في اليوم الثاني ولكن خاب هذا الأمل وتبين أن الأزهر لا يزال مطلق العنان وأن الطلبة إلى الكسل مخلدون !

دخلنا الأزهر بعد الظهر ، ثم مشينا معا بعد أن تبودلت التحيات

بين القـادمين والمستقبلين . وكنت عـزمت أن أتأمـل نـظرات هؤلاء الزائرين لهذا البيت العتيق عساني أعرف ما نحن عليه ، وما نحن فى حاجة إليه ، ولـكنى لم أمش بضع خطوات حتى خيل إلى أن هذا المعهد بقية من بقايا العصور الذواهب ، وأنه يجب على أن أفهم هؤلاء الناس أن الجامع الذى يجوسون خلاله ليس معهدا للعلم ولا مسجدا للصلاة ، ولـكنه طرفة عادية(أنتيكة) يؤمها المتشوفون لآثار الزمان الغابر !

وما ظنك أيها القارىء بمسجد ليس فيه من الحـصير مـايقى الجالسين عنت الرطوبةالتى تـكمن فى مثل هذاالمكان الذى ينخفض عن الشارع مترين فى بعض نواحيه ؟ وماذا عسى أن أجيب به هؤلاء الزائرين إذا قال قائلهم : مابال طلبة العلم عندكم يجلسون على الحجر العارى من الغطاء ؟ وكـيف أصبر على نـظراتهم إلى الـطلبة الذين يتململون من قسوة المكان الذى يجلسون فيه ساعات وهو قاتل ؟

وكم تمنيت وقتئذ لو أن أعضاء المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية حضروا هذه الزيارة الجميلة ، ليشرحوا لهؤلاء الأجانب السبب فى جعل الأزهر مقبرة لطائفة كبيرة من الطلاب ! ولعل منهم من درس فى الجامعات الأوربية أو الامريـكية ، ورأى فى أبهـة تلك الجامعات ما يصرف الطلبة عن العلم الصحيح ؛ فيبين للزائرين فضل الخشونة على العـلم ، ويـكشف الغطاء عن الصلة بين الظلمة التى تغشى جوانب الأزهر ، وبين نور العلم الذى يهديه للناس !!

هاتوا شبابى أيها الرؤساء ، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء !
هاتوا أملى فقد ذوت أغصانه فى ذلك البيت العتيق !

كانت هذه الخطرات تمرح فى ثنيات نفسى وأنا أصحب أولئك الزائرين ، وكنت كلما غلب على الخجل لبعض دلائل الاهمال ، أرفع بصرى إليهم وأقول بصوت خافت : « لقد فكر أولو الأمر فى إصلاح الأزهر وسيفرشونه بالأبسطة الفارسية بعد حين ! » غير أن هؤلاء الفرنسويين على جانب عظيم من أدب الخطاب فكانوا يقولون : « إن التجهم الذى يستقبل به الأزهر زائريه قطعة من جماله ، لأنه يمثل عهدا من عهود التاريخ »

مرحى مرحى ! يسركم منظر الأزهر لأنكم ترون فيه مظهرا من مظاهر الحضارة القديمة ، وما يضيركم لو أصبح الشرق كله رواية تاريخية تقرؤون حديثها فى كتب الغرب ، وتنظرون أشخاصها فى مصر وفى فارس !!

— ٦ —

وإن تعجب فعجب قول بعض الأزهريين : اجتهد فى أن تفهمهم أن الازهر أقدم جامعة علمية . ألا فلتطمئنوا — من هذه الناحية — فقد أفهمتهم أن الحضارة الشرقية أصل للحضارة الغربية ، وأن الأزهر مصدر العلم الذى ينعمون به الآن . . ولكن هل أستطيع أن أقول

لهم إن نظام الأزهر خير من نظام السوربون ، وإن الحصير الممزق الذى يجلس عليه الطلبة هنا خير من الأرائك التى تتكئون عليها هناك ، وأن الأحجار المنثورة حول الأزهر يتعثر فيها الطلبة فى الغدو والرواح ، أجمل من الحدائق المحدقة بالسوربون يشم شذاها الطلبة في الضحى والأصيل ، وإن الكتب المملوءة بالاغلاط والتى ترد البصر وهو حسير ، أنفع من الكتب الممتعة النفيسة التى يقرؤها الفرنسيون ، وهل أستطيع أن أقول : إن جامعة الأزهر فى بؤسها الفتاك ، خير من جامعة باريس فى نعيمها المرموق !؟

حقا إن فينا من يقنع من المجد بالطلل الدارس ، والرسم الطامس، وفينا من يرضى باللفظ وإن باد معناه ، ويقنع بالاسم وإن ضاع مسماه ! فيارحمة الله لهذه الأمة الآفلة النجم العازبة الحلم !!

— ٧ —

مشينا ننظر ذات اليمين وذات الشمال ، لنتبين فى وجوه الطلاب دلائل الجد والنشاط ، وأنا أعلم أنه ليس للطالب الأزهرى مثيل فى صبره على أعباء الحياة العلمية ، وكذلك راقنا منظر أولئك الجادين فى البحث والتنقيب ، وسرنى أن ليس لهؤلاء الفرنسويين معرفة باللغة العربية ، حتى لا يصح لديهم أن الكتب التى بأيدى الطلاب تماثل ما فى شكل الأزهر من الغلظة والجفاء !

ولقد بدا لنا أن نزور دار الكتب الأزهرية ، وكانت الساعة لم تصل إلى النصف بعد الظهر ، ففوجئنا بأن المكتبة أغلقت ، وأن لا سبيل إلى زيارتها إلا فى ضحى الغد . فأخذت أفكر فى أمر هذه المكتبة التى لا يتمتع بها أحد من الناس ، والتى تشبه دار الآثار فى أن لا حظ لأحد منها إلا أن ينظر ما اشتملت عليه بدون أن تناله يمناه ، أستغفر الله ! بل تشبه الرسوم الدوارس ، ليس للمرء من حظ إلا أن يعرج عليها فى الغدو والرواح

— ٨ —

عدنا فى اليوم الثانى مبكرين لزيارة المكتبة الأزهرية . فدخل الزائرون وهم يتحرقون شوقا إلى الوقوف على حركة التأليف عند العلماء ، وأخذوا يسألون عن الكتب القديمة والمؤلفات الحديثة ، فقلنا لهم : إن هذه المصنفات يغلب عليها القدم إلا بعضاً منها مثل كتاب التوحيد للاستاذ الشيخ حسين والى ، ولكن الأزهريين لا يعرفون شيئا عنه لأنه فى رأيهم قد خلص المسائل العلمية من المناقشات اللفظية ، وهم لا يزالون مضطرين إلى طرائق البحث القديمة ليجتازوا الامتحان !

وهنا أكل إليك أيها القارىء وصف ما يجده مثلى من الخجل فى مثل هذا الموقف فقد تعرف أن الفرنسويين يعدون الكتاب

قديما إذا مرت عليه ست سنوات ، وهم لا يرضون عن العالم إلا إذا ترك ثروة علمية ، فأما علماء الأزهر فقلما يعنون بالتأليف ، وكذلك كانت المكتبة خالية من كل ما يصل بين الماضى والحاضر !

— ٩ —

كنت رأيت أن لا أتم وصف زيارة أولئك الفرنسويين للازهر الشريف مجاراة لمن يرون فى هذا الوصف خروجا على الأدب ومروقا من الوفاء ، لولا أن لقينى بعض العلماء وشرح لى ما فى التغاضى عن النقد من الفساد العاجل ، والكساد الآجل ، ورغب فى أن أذكر هذه الزيارة بالتفصيل ، وأنا أذكر هنا ملاحظة واحدة وأعتذر عن البقية ؛ فان النفوس لم تتهيأ بعد لأن تتقبل كل ما ينفع وتتجنب كل ما يضر . وخذ من جذع ما أعطاك !

كان هؤلاء الناس يسألون برفق عما لم يهتدوا إلى فهم معناه ، ولقد تعرف أن كل ما فى الأزهر يستوقف النظر حتى كأنه كتلة من ألغاز الحياة لا يفهمها إلا من كتب عليه أن يكون جزءاً متصلا بهذه الجماعة التى تتكون منها مجموعة الشقاء ، وكذلك كنت أعرف مواقع الألم من نفوس الأزهريين ، ومواضع العجب من أفكار الفرنسويين ، لأن التنافر ظاهر بين معاهد العلم هنا وهناك ، ولأنى أعرف الفرق بين حياتين تتفجر من إحداهما ينابيع الأمل الباسم

والعيش الوادع ، وتثور من أخراهما براكين اليأس والقنوط ! !

ما مررنا بدرس من تلك الدروس إلا وجدنا من بين الطلبة من هجم على رأسه الشيب ، وأنقض ظهره التقوس ، وآذن نجم شبابه بالأفول . ويكاد المسيو فور يتبين بيده مارأت عيناه ثم يقبل على ويقول :

أصحيح ما أرى من أن ثلث الأزهريين فارقوا سواد الشباب ؟ وهل تجدب أرض العلم عندكم حتى يشيب المرء وهو ينتظر الازهار والاثمار ؟ ومتى يخلص هؤلاء من التحصيل ، حتى يفرغوا لتعليم الجهال ؟

كان يقدم إلى هذه الأسئله وهو يبتسم ، فبدا لى أن أنشده قول ابن الرومى :

شاب رأسى ولات حين مشيب	وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا	أن يرى النور فى القضيب الرطيب

فأخذ يحاورنى ويقول : إنى لا أشك فى أن فيهم من جاوز السبعين . فأقسمت بالله جهد يمينى أنهم شباب، وأن نظام الأزهر هو الذى عجل لهم المشيب ! ثم هممت أن أذكر له الحديث « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ولكنى لم أشأ أن أدله على أن نظام الأزهر مما يرضى عنه الله ورسوله ، وإلا كنت من الخاطئين !

اطفال بوهيميون

البوهيمية كلمة أجنبية ألفها الناس منذ سنين ، وهى بالعربية «الصعلكة» والبوهيميون هم الصعاليك ، وحياة «البوهيمية» حياة تطيب لبعض المخلوقات، ويألفها هواتها إلفا شديدا لأنها تريحهم من أثقال الشرف وأعباء التقاليد . وحياة الفضيلة عبء ثقيل لايحتمله إلا الأبطال

أكتب هذا وقد قرأت من أيام خبرا صغيرا ، ولكنه مزعج ويتلخص فى أن طفلا غاب عن أهله أسابيع ثم عثر عليه البوليس بين الاطفال الذين يجمعون أعقاب السجاير من الطرقات ، ولما سئل أهله أجابوا بأنه كان يعيش عيشة الرغد ، ولكنه هام بالصعلكة حين اتصل بغلمان الشوارع

وهذا أيضا خبر صغير يقرؤه المرء ثم ينساه بعد لحظة ولكن المشغوفين بالدراسات النفسية يقفون عنده وقفة طويلة لينظروا كيف يقبل الطفل أن يهجر حياة الرغد ليحيا حياة التشرد ، وليروا كيف يجب أن يساس الأطفال سياسة حازمة ، وكيف يتحتم حرمانهم من الاتصال بمن ألفوا البطالة والفراغ

إن المدنية الحاضرة مدنية مصنوعة إذا قيست بأصل الفطرة

الحيوانية ، والانسان فى الأصل حيوان متشرد لايفكر فى المأوى إلا إذا جن الليل ، فحياة النظام طارئة عليه ، ولكنها صارت على الزمن حياة طبيعية يهلك من ينحرف عنها قيد شعرة ، فكل إنسان يجد فى فطرته ميلا غريزيا إلى الحياة الخالية من التكاليف ، وهذا هو السر فى أن الداعرين والفاسقين يرون أنفسهم أسعد الناس ، ومثلهم فى ذلك مثل الطائر المحبوس حين يخرج من القفص ، والفرق بينهم وبين مصير الطائر الطليق أن الطائر يجد جواً حراً كل الحرية أما الفاسق فيتحرر من قيود التقاليد ليقع بعد لحظات فى مخالب القانون . والقانون بدعة إنسانية ، ولكن الخروج عليه صار من المستحيلات ، وأصبح الخلاص من أخطار الوحشية الأولى وقفا على طاعة ما ابتدع الانسان من القوانين

ومن هذا التعليل نفهم كيف يهرب الطفل من حياة الرغد فى بيت منظم ليتصعلك ويتشرد بين «السعداء» من المتشردين والصعاليك غير أن هذا الطفل لا يفهم أنه يتعرض لغضب القوانين الوضعية التى وضعتها الحكومات وأقرها الناس من مختلف الأجناس ، وصار الخروج عليها خروجا على أسباب السعادة الانسانية فى عهود المدنية فهو ينعم أياما بحريته ليظل طول الحياة ذليلا مهينا لا يقام له وزن بين الأحياء

والآباء مسئولون عن هذا المصير المحزن إن تهاونوا وتسامحوا فى رياضة أبنائهم على حياة المدنية ، حياة القيود والتقاليد ، فالانسان

حين اشترى طمأنينته الانسانية قدم فى ثمنها حريته الحيوانية ، والمغبون هو من يثور على التقاليد فى كل وقت بحجة أنها قيود صناعية ما أنزلت بها الطبيعة من سلطان . ومن حق الانسان أن يتفلسف ولكن على شريطة أن لا يعرض نفسه وأهله للشقاء

وهذه الصعلكة التى يهيم بها الأطفال هى أيضاً مما يغرم به الرجال ، وأكاد أعتقد أن الآباء هم الذين يحببون إلى أبنائهم هذه « البوهيمية » الحمقاء ، فمن العسير فى هذه الأيام أن تجد رجلا فى بيته حين يجن الليل . ومن الذى يعمر دور الملاهى والملاعب والمفاسق والمعابث ، إن عرف الرجال أن للبيت حرمات ، وأن له واجبات ، وأن من العقل أن يفكر الرجل فى إيناس أهله قبل أن يفكر فى إيناس أخدان المشارب والقهوات ؟ !

إلق من شئت من أصدقائك وأظهر له شوقك فسيسألك دائما هذا السؤال :

« أين تسهر لنراك »

ومن النادر أن يسأل صديق عن عنوان بيتك لأن أهل هذا الزمان لايتزاورون فى البيوت، وتكون النتيجة أن تخلى أطفالك فى البيت وتخرج ، فيتوهموا أنك وحدك السعيد وهم الأشقياء . وحينئذ يزهد الطفل فى ألعابه ، وينصرف التلميذ عن دروسه ، ويهمون جميعا بالخروج ، وإلى أين يخرجون ؟ إلى السنما ؟ إلى المسرح ؟

إلى المرقص ؟ إلى أين ؟ أجبنى ، فليس فى هذه الموارد كلها ما يوجه الطفل والتلميذ واليافع والمراهق إلى حياة الشرف والصيانة والعفاف

أعرفت الآن أن الآباء هم الذين يوحون إلى أبنائهم حب «البوهيمية» ويزهدونهم فى حياة الطهر والصون ؟ أعرفت أن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال؟

ولكن كيف نروض أبناءنا على بغض حياة الصعاليك ؟ السبيل إلى ذلك أن نخلق لهم نماذج من المثل العليا فى الحياة ، وأن نوجههم منذ الصغر إلى التشبه بكرام الرجال ، وأن نجعل لهم من الفضيلة مواطن للشغف واللهو ، ففى الفضيلة مغريات لا تقاس إليها مغريات الرذيلة حين يحسن التوجيه وخلق أسباب التعلق بعزائم الأمور . وهل فى الدنيا لهو ألذ وأمتع من أن يقوم الطفل بمسابقة أقرانه والتفوق عليهم والظهور بمظهر النبل والرجولة والعظمة فى القول والفعل !

يسأل عن ذلك الأم أولا ، والأب ثانيا ، والمدرس ثالثا

والحكومة ؟ أنا لا أسأل الحكومة شيئا. لأن أولى الأمر ناس أمثالنا وقد يسعدون فى الدواوين وهم فى بيوتهم أشقياء ، والحكومات فى كل الأمم آخر من يسأل عن الاصلاح ، لأن الشعوب هى التى تسأل عن أصول الأخلاق ، والحاكم لا يرشدك ولكنه يربيك . فهو يغبطك حين تسعد ، ثم يمد يده إلى السوط حين تنحرف عن

طريق الصواب

وأعود فأقول مرة ثالثة : إن حياة الفضيلة عبء ثقيل لايحتمله إلا الأبطال

٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣

ذكريات طالب اشترك فى الثورة

يوم البعث

١ — لا تذكر يوما بعينه من شهر مارس سنة ١٩١٩ فان الناس لا يذكرون ذلك اليوم إلا تمثلت لهم أطياف وأشباح من أثير الذكريات ، ولا تذكر شهيدا بعينه من شهداء الحركة الوطنية فقد درجت الأيام وكرت السنون ، ونسى الذاكرون مئات من الشهداء ، واذكر فقط أن ذلك اليوم كان يوم البعث ، وأنه كان بداية اليقظة العقلية والسياسية والأدبية فى بلاد طال عهدها بعيش الخمود فى ظل الاحتلال

٢ — كنت من خطباء الثورة المصرية فاكتويت بنارها ، وشهدت آلام التشريد والاعتقال شهورا طوالا ، ومع هذا فما تمثلت تلك الأيام إلا بدت لى بعيدة جدا ، كأنما ألقى بها القدر فى واد من

النسيان سحيق . ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والتوثب لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب تتطلع إلى الخلاص من الآصار الثقال التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية ، وكنا نقرأ فى كتب السير والأخبار والتواريخ ونراجع من آثار الماضى والحاضر ما تتمثل به حالنا فى العالمين ، وأذكر أنى كنت طالبا فى الجامعة المصرية ، وكان لنا أستاذ مولع بتشويقنا إلى أعلام المجد هو الأستاذ أحمد صالح الذى كان يدرس لنا تاريخ البابليين والأشوريين ، ومن غرائب ما وقع أنه كان يحدثنا بأن الفراعنة كانت لهم مطامع فى تلك البلاد ، وأن من الخير أن نعرف ماضيها وحاضرها ، ونتعرف إلى مواردها الغنية عسانا نجدد العهد برياضها وغياضها ، فنصل بالسعى والجد ما قطعت صروف الزمان ، وكانت تلك الآراء الطريفة تبدو فى صورة الأحلام ، لأن انجلترا كانت أخمدت أنفاسنا ، وزهدتنا فى المجد الطريف والتليد . فلم يبق لدينا ما نحلم به لاقامة أعلام الملك فى أرض العراق ، وفى تلك الأيام صحبنا الأستاذ أحمد صالح لزيارة الاهرام فوقف الرجل يتكلم بحماسة وطنية ، فتقدمت وألقيت خطبة أدعو بها إلى تجديد ما درس من مجد الآباء ، وكان ذلك كله يمر فى أودية من اليأس ، لا تتطلع النفس فيها إلى نبت من الأمل جديد .

٣ — كان المرحوم علوى باشا مراقبا للجامعة المصرية ، وكان منصب المراقب العام يساوى منصب المدير ، ثم توفى رحمه الله فى

أوائل سنة ١٩١٨ (إن لم تخن الذاكرة) فدعانى سكرتير الجامعة إلى إلقاء كلمة التأبين باسم طلبة الجامعة المصرية ، ولما شيعنا المرحوم إلى قبره وقمت لالقاء الخطبة رأيت بين كبار القوم رجلا كبير الهامة ، مديد القامة ، رزين الملامح تنطق معارف وجهه بأن اسمه سعـــد زغلول ، وما هى إلا أيام حتى اجتمع مجلس إدارة الجامعة المصرية فاختار سعد باشا زغلول مراقبا عاما ، فى المنصب الذى خلا بوفاة علوى باشا ، وأخذنا نشاهد ســعد باشا يوميا فى دار الجامعة واستبشرنا بقدومه ورجونا أن تدخل الجامعة بفضل نشاطه ومركزه فى دور من أدوار الجد والاقبال ، ثم جاء العام الدراسى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ فحضر سعد باشا وألقى علينا خطبة نفيسة قدم بها الدكتور احمد ضيف ، وحدثنا بأنه لاموجب للقلق على مصير الجامعة ، لأنها أنشئت بارادة الأمة وأموال الأمة ، والأمة التى أنشأت الجامعة لا تزال قوية الجانب ماضية العزيمة ، لا يعتورها ضعف ولا يتطرق إليها قنوط .. ولكننا أخذنا نلاحظ بعد ئذ أن سعد باشا شغل عن عمله بالجامعة وما عدنا نراه يوميا كما كنا نراه ، وخفنا أن تكون نبوءة (الصاحبين) صحت فيـــه ، والصاحبان هما منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وكانا يكتبان بهذا الامضاء فى صحيفة السفور ، واتفق لهما أن كتبا كلمة يوم عين سعد باشا مراقبا عاما للجامعة فذكراه باليوم الذى كان تولى فيه إدارة الجامعة ثم تولى وزارة المعارف ، ورجواه أن يبقى للجامعة

هذه المرة فلا يخليها إلى منصب الوزارة ... أخذنا نتهامس ونتساءل عن الأسباب التي يتغيب من أجلها سعد باشا ، فأخبرنا أحد الاساتذة أن سعد باشا مشغول بتأليف الوفد ، وكانت أول مرة سمعت فيها اسم الوفد ، وعلمت من أخباره بعض التفاصيل ، وبعد أيام ذهبت لزيارة قريبي الأستاذ محمود الجبالى ، وكان يومئذ موظفا بالجمعية التشريعية فرأيت عنده أوراقا كثيرة وصلت إليه بطريقة سرية عن أعمال الوفد وفيها احتجاجات موجهة إلى مؤتمر الصلح بتوقيع «الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية سعد زغلول»

٤ — وفى تلك الأيام - أواخر سنة ١٨ - كان من البدع المحمودة أن يتهادى الطلبة احتجاجات الوفد المصرى وتقرير الحزب الوطنى ، وكانت أشياء نادرة يتلقاها الناس فى همس ، لأن السلطة العسكرية كانت فى تلك الأيام ذكية القلب ، مرهفة السمع. وأذكر أن المرحوم إسماعيل بك رأفت دعانى إلى مكتبه بالجامعة المصرية وأوصانى أن أحصل له من أحد إخوانى على نسخة من استقالة رشدى باشا وكانت تلك الاستقالة تعد يومئذ شيئا عجيبا ، وكان رشدى باشا يعد جريئا فى استقالته ، وكان الناس يرون فيه إماما من أئمة الشهامة والوطنية ، وفى تلك الأيام نفسها أذاع المرحوم أمين بك الرافعى تقريرا عن مصير الحزب الوطنى ، مهدبه لانضمامه إلى الوفد المصرى ، وكان ذلك التقرير مما يتهاداه الطلبة بين راض وساخط وكانت تلك الأوراق والتقريرات والاستقالات مما يقرأ

بشهية عجيبة ، ويتقبله الجمهور بأحسن القبول ، وكان الطالب الذى لا يعرف شيئا من أمر تلك المنشورات يعد من المتخلفين .

٥ — كان تأليف الوفد المصرى بداية عهد لايقاظ العواطف الوطنية ، ومن دلائل ذلك أن السلطة العسكرية كانت منعت الناس طوال أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل ، فلما كان يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا إلى قبر مصطفى كامل وذهبت مع فريق من الطلبة ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندى يقرأ القرآن والناس يستمعون فى صمت ورهبة ، وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل بك فناقش مبادئ الوفد المصرى ، وكانت تلك المناقشة تقع من أذهان الطلبة موقعا غريبا ، لأن الجمهور كان لا يحب أن يرى فى تلك الآونة أى مظهر من مظاهر الخلاف ، ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية ، وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال ، وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة فقضوا فى السجن أياما وأسابيع ، وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن والاعتقال .

٦ — كانت الشهور الأخيرة من سنة ١٨ والشهور الأولى من سنة ١٩ تفيض بدلائل اليقظة الوطنية ، وكان الناس يتحدثون فى المدارس والأندية والمتاجر عن مصير الأمانى المصرية بين أمانى الشعوب ، وظهر ذلك الشعور بقوة فى أنفس الطلبة ؛ وأعرف طالبا قدم كتابا للطبع اسمه « حب ابن أبى ربيعة وشعره »

فوضع فى الصفحة الأولى مانصه :

« إلى مصر »

أداراً بها عيش الحليم يطيب ... ويكرم فيها المرء وهو غريب

وقيت الردى لاتعرفى اليأس خطة ... فما كل يوم ذو الرجاء يخيب

فان كنت قبل اليوم لم تبلغى المنى ... فان غدا للناظرين قريب

ووضع تحت صورته الأبيات الآتية :

لم يغد رسمى ضئيلا كالبدر عند المحاق

إلا لأن الليالى وما لها من خلاق

صيرننى فى بلادى غضنفرا فى وثاق

٧ — ومن الظواهر البارزة التى شغلت الطلبة فى ذلك العهد إمضاء توكيلات الوفد المصرى فقد كنا نأخذها لامضائها من أهلينا وذوى قرابتنا وأصدقائنا ، وذهبت يوما مع أحد الأصدقاء لنأخذ توكيلات جديدة من سكرتيرية الوفد فأخبرنا الأستاذ محمد بدر بأن النية انصرفت عن ذلك مؤقتا حتى لا تسارع السلطة العسكرية فتبطش بالوفد وتبدد نظامه ، وكانت تقابل حركة الوفد حركة أخرى يقوم بها الحزب الوطنى ولكنى أذكر أن صداها كان ضعيفا فى أنفس الطلبة ولم تظهر هذه المقاومة فى تنظيم المبادىء إلا بعد أن جاء المرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى وأقام ناديه فى منزله وأخذ يتصل بطلائع الحركة الوطنية

٨ — ثم نفخ فى الصور يوم اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا

ورفاقه وأرسلتهم إلى مالطة . فهبت أعاصير الثورة بصورة لم نشهد لها مثيلا ،وفى أيام معدودات وقعت فى مصر الأعاجيب : فعطلت المواصلات ، وأضرب الموظفون ، ونظمت الخطابة فى المساجد والكنائس .وكان للاسكندرية ، وطنطا ، والمنيا ، واسيوط مقام فى الثورة كاد يغطى على حركة القاهرة من حيث القوة والعنف

٩ — ومما أذكره ولن أنساه أننا كنا نحدث الناس فى الازهر عن أخبار الأقاليم ، فجاءت الأخبار يوما بأن المنيا ثارت وأعلنت الاستقلال ، وكان لى هناك قريب عزيز هو المرحوم محمد بك حمدى وكيل مديرية المنيا فاعتقلته السلطة العسكرية مع سعادة يونس باشا صالح رئيس نيابة المنيا حينذاك ، ورأت السلطة العسكرية يومئذ أن وكيل المديرية ساعد الثورة وأيد العصيان وإعلان الاستقلال ، وضعفت أعصاب المرحوم حمدى بك فانتحر فى المعتقل وكان انتحاره فى أيام عيد ، فقضينا فى الريف عيداً مراً لاتزال ذكراه تمض القلوب

١٠ — وكان لمدينة أسيوط شهداء ، فقد قامت فيها الحرب بالفعل بين الاهالى وبين الجنود الذين سخرتهم السلطة العسكرية وقضت تلك المدينة أسابيع تحت الأحكام العرفية ، وظلت فيها المحاكمات مدة طويلة ، وكنا نفصل أنباءها فى الأزهر كل مساء

١١ — شهداء الثورة المصرية عديدون ، ولكن أول شهيد شيعت جنازته فى مظاهرة وطنية هو المرحوم ماهر افندى ، وإنى

لأذكر الآن أننا ذهبنا إلى الأزهر لاقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة ومعها علمها الخاص ، ووقفنا صفوفا أمام الازهر نخطب ونهتف ، وظلت الطيارات الانجليزية تحوم فوق رءوسنا تحويما وقحا ، وبقينا كذلك حتى انتصف النهار ، وكان فى الطلبة شاب متحمس أراد أن يخترق صفوف الجنود الانجليز فطعنه أحدهم طعنة دامية ، فحملناه إلى صحن الأزهر ودمه يفيض فى رائحة المسك ولا أكاد أذكر كيف حملته عربة الاسعاف ، وكيف اجتمعنا في اليوم التالى لتشييعه إلى قبره الشريف ، وإن كنت أذكر أن القاهرة كلها اشتركت فى توديع ذلك الرفات العزيز .

١٢ — ومن مظاهر أيام الثورة أن الخطب كانت تجرى منظمة فى الأزهر كل مساء ، وكان الشيخ عبد ربه مفتاح ينقل أخبارها إلى جريدة الاهرام ، وخاصة إذا وقع فيها حادث يستحق النشر كزيارة البطريرك والحاخام للازهر الثائر . وكانت الجرائد تنشر أخبار الثورة مقتضبة أو محرفة وفقا لأهواء السلطة العسكرية ، فصحت نية أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ، على وضع كتاب للثورة على نمط مذكرات الجبرتى يسميه « الأيام الحمراء » واتفق معى على أن أكتب الجزء الخاص بخطب الأزهر ثم شغل وشغلت ، ولا أدرى ماذا صنع بذلك المشروع الجليل .

١٣ — كان الأزهر يموج كل مساء بالالوف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية ، وكانت لجنة الوفد المركزية تمد حركة الأزهر

وترعى من يخطبون فيه ، وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون ، وكان الانسان لا يصل إلى موقف الخطيب إلا بجهد جهيد ، وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع ، وحدث أن الشيخ أحمد الكنانى نظم قصيدة حماسية ، وأراد أن يوسع له المجال فلم يستطع ، فعاد بعد أيام وقدلبس بذلة أفرنجية وأرسل من يخبر الشيخ أبا العيون بأن سعادة «أحمد بك عبد التواب» يريد أن يلقى قصيدة ، و«أحمد بك عبدالتواب» اسم اخترعه الشيخ الكنانى ليجد السبيل إلى الخطابة ، ورحب الشيخ أبو العيون «بسعادة البك» وأعطاه المنبر بلا عناء ! وظللت أنتظر أياما لأخطب وطال الانتظار ، وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية ، وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فطلب الشيخ أبو العيون من ابرهيم افندى عبد الهادى أن يرد تحيتهم فاعتذر ، فسألنى الشيخ أبو العيون فتقدمت بجرأة وحماسة ، وخطبت خطبة فرنسية رنانة شهد الشيخ الزنكلوني بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية !! ومنذ تلك اللحظة كنت أصل إلى موقف الخطيب برغبة الجمهور الذى كان ينتظر خطبتى كل مساء . وأشهر خطباء الثورة يومئذ المرحوم أبو شادى بك ، والمرحوم الشيخ مصطفى القاياتى والدكتور محجوب ثابت ، وأشهر شبان الخطباء كان محمد شكرى وهو اليوم محام معروف ؛ وكانت خطبه كالصواعق ؛ وكانت ميوله مع الحزب الوطنى وكانت المعالم المشهورة فى الثورة منزل القاياتى بحى الدرب الأحمر

ومنزل محمود باشا سليمان بشارع الفلكى ، ومنزل عبد اللطيف بك الصوفانى بالحلمية الجديدة ، ومنزل عبد الرحمن بك فهمى بشارع القصر العينى . وظفر منزل سعد باشا باسم بيت الأمة وكان له فى الثورة مقام مشهود

١٤ — قلت إن شهداء الحركة الوطنية يفوقون الحصر والاحصاء ، فكم من ناس شقوا وتعبوا ثم ذهبت الاختلافات الحزبية بأعمالهم ! ومن المروءة أن نذكر فى هذا المقام القمص سرجيوس فقد كان من أشهر خطباء الثورة ، ثم نسيت أخباره لأسباب حزبية . والمرحوم الشيخ محمد الخضرى كان من أهم الأعضاء فى لجنة توحيد المطالب ثم ذهبت أعماله أيضا لاسباب حزبية . وهناك رجال كثيرون انسحبوا من الميدان بعد أن عرف الانجليز كيف يسلطون بعض المصريين على بعض ، وكيف يمنونهم بالمناصب ويخدعونهم بالألقاب

١٥ — وذهب فتيان أمجاد فى إقامة الخنادق بشوارع القاهرة ، وكان للجنود الانجليز ولع بمطاردتهم ، وكانت الاعتقالات لا تنقطع ، ومن دلائل القوة يومئذ أن السلطة كانت لا تعتقل خطباء الثورة إلا ليلا ، خوفا من هياج الجمهور ، ويضيق المجال إذا ذهبنا نعدد ما لقى الاحرار من الاضطهاد فى هذا السبيل

١٦ — وبعد فهذه أثارة من حوادث الثورة التقطناها من الذاكرة ، فدونا شيئا وأغفلنا أشياء ، ولا نملك الآن إلا الترحم على

شهداء الوطنية الذين ذهبت أرواحهم فدية خالصة للوطن العزيز
ويمكن الحكم بأن تلك الأيام هى خير مامر فى تاريخ مصر الحديث
ولم يعرف المحتلون قيمة الشعب المصرى إلا فى تلك الأيام الحمراء
وحسب القارىء أن يذكر أن اللورد ملنر حضر للمفاوضة فقاطعه
الشعب مقاطعة تامة ، ولم يدخل القاهرة إلا بليل ، وقضى أيامه فيها
متنكرا لا يعزيه إلا التريض على سطح الماء . بقيت فى النفس أشياء
لاتقال : لأنها لاتجد من يسمع ولا تظفر بمن يجيب ! والله سبحانه
هو القادر على أن يهبنا الرشد ، وأن يهدينا إلى سواءالسبيل . وسلام
الله على شهداء الوطن والحرية والاستقلال !

وعند الله جزاء من جهل التاريخ أخبارهم فلم يقيد أسماءهم فى
سجل الشهداء! ورعى الله العهد الذى كانت موسيقانا فيه

« مصر للمصريين »

نضر الله وجه ذلك العهد ، وعطر صحائفه بين صحائف التاريخ !

١٣ مارس سنة ١٩٣٣

خطـــرات

باريس فى ٢٢ يناير سنة ١٩٣١

متى نفهم الشعر الجميل ؟

كنت فى حداثتى مولعا بحفظ الشعر ، وحملنى الزهو مرة على أن أحسب أننى أحفظ الناس لروائع الشعر البليغ ، وقد بقى هذا الغرور فى نفسى إلى عهد قريب ، وأذكر أن الأستاذ الدكتور طه حسين كان يلقى محاضرة فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ فبدا له أن يهاجم أساتذة الأدب فى مصر فقال : أنا أزعم أن أساتذة الأدب فى مصر ليس فيهم من قرأ ديوانين من الشعر العربى قراءة صحيحة فقلت له :

« استثننى يادكتور . الله يهديك ! لأننى أحفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى وأستطيع إنشادها بعد مراجعة صغيرة ، فأجاب : العفو ! أنا لاأقصد أساتذة الجامعة .

كنت أحفظ ثلاثين ألف بيت ، ولكن هل كنت أفهمها جميعـــا ؟ !

نعم ! كنت أفهمها ، ولكن كيف ؟ على الطريقة المدرسية ! فان سألت ما هى الطريقة المدرسية ؟ فانى أجيبك بأنها هى بعينها

الطريقة القاموسية ، وأرجو أن تقف عند هذا الحد ؛ فان الطريقة القاموسية شرحها يطول !

الشعر لا يفهم عن طريق القاموس، إنك لا تفهم الشعر إلا إن اصطدمت بالأزمات الروحية ، والوجدانية ، والعقلية ؛ التي أنطقت الشعراء ، وقد تمر لحظات يكون فيها القارىء أشعر من الشاعر وأعرف منه بأسرار شعره . وهذه فكرة تبدو جريئة وغير معقولة مع أنها من صميم الحق والواقع ، فقد يتفق أن يتغنى البلبل من حيث لا يدرك مرامي التغريد ، ثم يستمع إليه إنسان عميد القلب مجروح الكبد ، فيفهم من شدوه معاني دقيقة عجيبة ، لا يدركها البلبل ولا تخطر له على بال

وقد يترك الشاعر بعض المعاني بلا تحديد ، فتكون فرصة طيبة لعرض أخيلة القراء ، ومن أمثلة ذلك قول جرير:

يا أخت ناجية السلام عليكمو   قبل الرحيل وقبل عذل العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم   يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فقد كثرت التأويلات لكلمة فعلت ما لم أفعل ، وهي مع ذلك باقية على بكارتها تنتظر أخيلة الفحول ، وهيهات أن يدرك معناها فتى لم يشقه الحسن ، ولم تعلمه الليالي كيف تكون مرارة الفراق

وقد انتقد الدكتور طه قول حافظ :

خمرة قيل إنهم عصروها   من خدود الملاح في يوم عرس

وفي رأيه أن هذا خيال سخيف، لأن الانسان يتقزز حين يفترض

صحة التشبيه لبشاعة الدماء

ذلك رأيه أما أنا فأتمنى مخلصا أن تقدم إلى كأس مترعة روية من عصير الخدود ! رباه ! متى يصح هذا الحلم الجميل ! [١]

إلى هنا عرف القارىء أن الشعر لا يفهم عن طريق القاموس وإنما يفهم عن طريق الوجدان فليسمح لى إذاً بأن أقدم إليه نماذج من شعر كنت أحفظه منذ أزمان ولكنى لم أهتد إلى خطره إلا فى هذه الأيام

وليت شعرى من ذا الذى يفهم كما أفهم هذه الأبيات :

من له عهد بنوم ... يرشد الصب إليه
رحم الله رحيما ... دل عينى عليه
سهرت عينى ونامت ... عين من هنت عليه

ومن ذا الذى يدرك كما أدرك هذين البيتين :

وأنزلنى طول النوى دار غربة ... إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
احامقه حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وما كان بودى شهد الله أن أدرك أسرار هذا الشعر الذى يمثل قلق المسهد ، أو حيرة الغريب !

---

(١) وهذا أيضا من الخيال البعيد ، لان للدكتور رأيا خاصا فى عفافه عن خدود الملاح . ولعله يتمناه كما يقرره فى « الحلم الجميل » أم مصححه .

***

خدك وردى

صحبت الأستاذ الشيخ سيد المرصفى ستة أعوام ، فتلقيت عليه شرح الحماسة ، وشرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وكان فى ذلك العهد أعلم الناس بأسرار اللغة العربية ، وكنت أكتب كل ما ينطق به من جد أو هزل ، وكانت له لحظات يستطيب فيها الفكاهة والمزاح ، ولكنه كان يمزح وحده بدون أن يسمح للطلبة بمشاركته فيما يلقى عليهم من الملح والفكاهات

كان الشيخ المرصفى يذكرنى بقول أبى الحسن الشاذلى : (نحن كالسلحفاة تربى أولادها بالنظر) ذلك بأنه كان لا يشرح أسباب إعجابه بالشعر ، أو نقده إياه ، وإنما كان يكتفى بكلمة صغيرة ، أو إشارة خفيفة ، نفهم منها أن هذا شعر جيد ، وأن ذلك شعر ردىء إلى غير ذلك من التلميحات التى لا ينتفع بها إلا عدد قليل من الطلاب

مثال ذلك ماجاء فى الأمالى :

أزف البين المبين ... وجلا الشك اليقين
لم أكن لا كنت أدرى ... أن ذا البين يكون
علمونى كيف أشتا ... ق إذا خف القطين

وقد أراد الشيخ المرصفى أن يبين ضعف هذا الشعر ، ولكنه

لم يزد على أن قال فى مخاطبة الشاعر: (انفلق !)

وكان إذا شاء أن يشير إلى ضعف بعض أبيات النسيب قال (أيوه ياسيدى خدك وردى !)

وكذلك كانت كلمة (خدك وردى) هى القاضية على أكثر ما كان يمر بنا من الشعر الرقيق

وقد اتفق أن مرت بنا هذه الأبيات :

لم أنس إذ ودعته والتقى ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمى على جسمه غصنان ذا غض وذا ذابل
يارب ما أطيب ضمى له إلى لولا أنه راحل

فقال الشيخ : «خدك وردى»

وفى تلك المرة استطعت أن آخذ على الشيخ المرصفى إسرافه فى نقد أشعار المولدين ، فهل صحيح أن هذا شعر ضعيف وهل هو حقيقة خدك وردى ؟

أما أنا فأعتقد أنه من أنضر وأرق ما قال الشعراء ، فمن كان فى ريب من ذلك فلينتظر حتى يشهد مواقف التوديع

***

هل تخرج الشهوة من العيون

كان لأستاذنا الدكتور منصور فهمى دروس خاصة يلقيها على

طلبة الفلسفة بالجامعة المصرية وكان حريصا على ألا يشهدها أحد من الجمهور.

وفى تلك الدروس كانت تظهر عبقرية ذلك المفكر العميق الذى يظلمه من يقيس فضله برسائله التى ينشرها فى الصحف ، أو محاضراته التى يلقيها فى الأندية العمومية ، كان يجلس فيحادثنا ونحادثه فى رفق دونه رفق الخلصاء حين يتسامرون ، وكان مغرما بعرض مشاهداته وملاحظاته على ما يقع أمامه فى حياة الناس

أخذ مرة يشرح لنا العواطف المشوبة بنعيم الحواس ، فساقه الحديث إلى أن يذكر أنه سمع رجلا يتحدث عن عشقه لابنة عمه وكيف كان ذلك العشق بريئا لا دنس فيه ، وكيف انطلق المحدث يؤكد لسامعه أنه كثيرا ما كان يقضى الليل مع ابنة عمه فى فراش واحد ، وهما يتناجيان ويتشاكيان دون أن يقع ما يجرح العفاف وإذ ذاك قاطعه الدكتور منصور فقال :

(إذن والله تخرج الشهوة من عينيك !)

وأنا أشهد أن هذا حق ، وأن الشهوة قد تخرج من العيون ، ولكنى لا أدرى أحرام هذا أم حلال ؟ فما قولكم ، دام فضلكم ، ياحضرات المفتين الذين لا تراسلون الصحف إلا فى شهر رمضان ؟ أجيبوا ، أثابكم الله ، فان هذه مسألة تشغل بعض اخوانكم فى باريس

كيف يساس الطلبة

فى المدارس الفرنسية ؟

حقائق تنفع الأساتذة والطلاب

قبل أن أواجه موضوع هذه الرسالة أتوجه بكلمة عتب صغيرة إلى حضرة مصحح البلاغ مع اعترافى بفضله وكفايته وتفرده بالحرص والتدقيق بين مصححى الجرائد بالقاهرة ، وهذا العتب لا يرجع إلى بعض الأغلاط المطبعية القليلة التى تفوته ، ولكنه يرجع إلى الكلمات التى يصححها عامدا فى رسائلى وينقلها من وضع إلى وضع فقد جاء فى رسالتى عن شهداء السين كلمة «أعزاب» جمع عزب بالفتح و التحريك وهو من لازوجة له ، فغيرها إلى « عـــزاب» ليساير اللغة الجارية. والحق فى جانبى لأن «أعزاب» هو الجمع المقبول سماعا وقياسا ، وجاء فى رسالتى عن ليلة المانش عبارة « والمرء يعجز لا المحالة» بالألف واللام فصيرها هو « والمرء يعجز لا محالة » ليساير مادرج عليه الناس . وهذا خطأ لأن المحالة بالألف واللام معناها الحيلة وبذلك يجرى المثل ، فى حين أن التغيير الذى انتقل إليه يحرف المثل عن موضعه ويجلب إلى الكاتب سخرية بعض القراء وفى هذه الرسالة أقول « العزب من لازوجة له» وأرجو أن لا

يغيرها إلى « من لازوج له » ليساير تعبير الأقدمين فانى أستحب أن أغلب القياس وأفضل أن يقول الناس مثلا « خادم » للمذكر و « خادمة » للمؤنث وأن يقولوا « امرأة سافرة » بدلا من « امرأة سافر » التى نص عليها المصباح . ولست بهذا أعفيه من تصحيح رسائلى بنفس العناية التى عهدتها فيه منذ عرفته يوم كان يقوم أغلاطى فى سنة ١٩١٤ ولكنى أرجوه أن يلاحظ أننى قد أضع عامدا بعض الألفاظ والتعابير لغرض أرمى إليه إحياء لبعض الألفاظ القديمة أو إيثارا لبعض الألفاظ الحديثة ، واللغة لا تتهذب ولا تتطور إلا بأقلام الكتاب .

ولأعد إلى موضوع هذه الرسالة فأقول :

إن الذين اشتغلوا بالتدريس كما اشتغلت به ، وذاقوا حلوه ومره فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وعرفوا ما يجرى فى المدارس الأميرية والأهلية ، يذكرون أن هناك فسحة من الوقت بين الحصص تتراوح بين خمس أو عشر دقائق ـ وأحيانا تصل إلى خمس عشرة دقيقة ـ وهذه المدة القليلة يقضيها المدرسون فى التشاكى ولكن مماذا ؟ من الطلبة !

وأنا شخصيا أذكر هذه اللحظات بارتياح ؛ فقد كانت همومى أخف من هموم الزملاء ، ولا أذكر أن الطلبة اضطربوا مرة بشكل يزعجنى ، ولكنى أعترف أن مهنة التدريس مهنة شاقة لا يستغرب فيها أن يتشاكى المدرسون وأن ينظموا قصائد الأنين !

غير أنى كما يعرف القارىء حديث العهد نسبيا بهذه المهنة لأنى لم أعالج همومها إلا بعد الحرب ، من أجل ذلك كنت أسأل زملائى عن ماضيهم ؟ فكانوا يجيبون بأن الطلبة لم يتمردوا إلا منــــذ شبت الثورة المصرية ، وأنهم قبل ذلك كانوا فى وداعة الحملان

وكان هذا الجواب يقع من نفسى موقعاً سيئا ، لأنه ما كان فى وسع الأمة المصرية أن تؤجل ثورتها على الظلم والهوان ليظـــل الطلبة وادعين ، وليظل الأساتذة فى راحة وسلام !

وكان بعض زملائى يتشاءمون حين يرون طالبا يراسل صحيفة يومية أو أسبوعية ، وكنت بخلاف ذلك أحض الطلبة على مراسلة الصحف وأسوقهم إلى الميدان ، وكنت أقول فى نفسى : إذا لم يكن بد من تضحية ، فلتتقدم الأمة وليتخلف المدرسون !

فهل من الحق أن الطلبة المصريين يمتازون من بين الطلبة فى العالم بحب المشاغبة ، وأن سلوكهم المدرسى لم يسؤ فى هذ الجيل إلا باشتراكهم فى النهضة المصرية ؟

الجواب بالسلب ، وإلى القارىء البيان :

مهنة التدريس فى العصر الحاضر شاقة فى العالم كله ، وثورة الطلبة على النظام المدرسى وخروجهم على أساتذتهم من الأمور التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر . والطلبه المصريون جاءوا أخيرا بعد أن تمرد سواهم بعشرات السنين ، وإذا كان المدرسون المصريون لم يشكوا من الطلبة قبل سنة ١٩١٩ فذلك يرجع إلى

أنه لم يكن بمصر مدارس ولا تدريس ولا تلامذة ولا أساتذة بالمعنى المعروف اليوم؛ وإنما كان هناك مدارس متواضعة محدودة الفصول وكان هناك تلامذة قلائل يوصيهم آباؤهم فى الصباح والمساء ويغرونهم بالجد والتحصيل، وكان هناك مدرسون معدودون لو تلفت أحدهم إلى زميل يشاكيه لما وجد، فكان من الحق أن تظل الحياة المدرسية هادئة لا قلق فيها ولا اضطراب. ولو أننا عدنا إلى إحصاء طلبة المدارس العالية فى أيام الحرب لهالنا ذلك الاجداب فلم تكن هناك مدارس عامرة غير الطب والحقوق، وكان فى هاتين المدرستين تباشير للقلق الذى عم بعد ذلك فى المدارس المصرية، ولم يكن فى مدرسة المعلمين العليا غير آحاد فى كل فصل والفصل هنا معناه السنة الدراسية برمتها، ولم يكن للتعليم الثانوى حظ يذكر فى الأقاليم وكان طلبة الثانوى فى القاهرة والاسكندرية أضعف من أن يقاسوا إلى طلبة اليوم الذين لا يفتؤون يشغلون أولى الأمر فى وزارة المعارف فضلا عن حضرات المدرسين

والحال اليوم فى المدارس المصرية غيرها بالأمس: فهناك مدارس وطلبة وأساتذة، ومن أجل ذلك أخذت مشكلة التعليم لونا جديدا يتناسب مع خطورة الحياة المدرسية، فعلى الأساتذة أن يستعدوا للكفاح، وعلى مدراس المعلمين أن تفهم أن إعداد الأساتذة أصبح فى غاية من التعقيد. فمن الواجب أن يختار طلبة المعلمين اختيارا خاصا يراعى فيه تكوينهم الجثمانى والعقلى والأدبى، فكل تشويه فى الجسم

أو فى الذوق له أثره الخطر فى البيئات المدرسية ، وليست آراء المربين القدماء بكافية فى إعداد المعلمين ، فقد كان أكثر رجال التربية فلاسفة نظريين لم يعانوا مشاكل التعليم ، ولم يقدروا ما سيكون عليه الطلبة فى القرن العشرين ، وعلى وزارة المعارف المصرية أن تفهم أن كل اضطراب مدرسى له أسباب أخرى غير اشتراك الطلبة فى الحياة العمومية ، وأقرب هذه الأسباب هو بعد مابين الأساتذة والطلبة فى فهم الحياة ، وتقدير مشاكل الجيل الجديد ، وبقدر مرونة الأساتذة وبعد نظرهم وفهمهم لروح العصر يكون نجاحهم فى الحياة المدرسية ، وليس بمستطاع فى عصر مشرب بروح الثورة فى جميع الأقطار أن تقهر الطلبة بالشدة العنيفة أو أن تسوسهم بمبادىء من التربية كانت لا تكفى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد رأيت بنفسى كيف يكون نجاح المدرس المثقف ثقافة حديثة ، وكيف يكون سلطان الأستاذ الذى يخالط الطلبة ، ويدرك ميولهم وأذواقهم ، ويعرف منهم مواطن الضعف ومواضع القوة ، ورأيت كيف يخفق المدرس المتخلف الذى يعيش فى القرن العشرين بروح القرن العاشر ، فان لكل طالب عينين وأذنين ، وهو ثاقب البصر فى اختيار أستاذه ، ومعرفة مايفهم من شؤون العصر الحديث . وليست الدروس كلها بمقصورة على موضوعات المناهج ؛ فهناك لحظات يفرغ الطلبة فيها لأساتذتهم ويختبرونهم وجها لوجه ، ويكاد طلبة اليوم ينتظرون من أساتذتهم

أن يرشدوهم إلى أهم الروايات المسرحية والأشرطة السينمائية ، ويكادون ينتظرون منهم أن يعاونوهم على حل ما يواجههم من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية والوجدانية . وليس هذا حال الطلبة فى مصر فقط ؛ بل هذا حالهم فى جميع الأقطار فى هذا الجيل والحياة حركة فويل للجامدين !

ونعود فنذكر أن المدارس الفرنسية كانت إلى سنة ١٨٨٠ تدار إدارة عسكرية ، وكان الطلبة محاطين بطائفة كبيرة من القيود والأغلال ، وكانت المدارس أشبه شىء بالسجون ، وكان الاساتذة والضباط والنظار مسلحين بالشدة والعنف فى كل وقت . والذى يعرف أن أكثر الطلبة كانوا ولا يزالون يقيمون فى المدارس ليلا ونهارا ، يعرف كيف يكون تبرمهم وضجرهم من حياة ضيقة مغلقة الأبواب ، وهذه الحياة الثقيلة لم تكن شرا مطلقا ، ولم تكن خيرا مطلقا. فقد كان من شرها أن أخمدت روح الجد والنشاط، وحولت الطلبة الى آلات ناطقة ولكنها لا تفكر ولا تبين . وكان من خيرها أن أجلت تعرف الطلبة ببعض الخصال الرديئة التى تبثها حياة الحرية فى باريس وحبستهم فى نطاق من التعقل والاعتدال

ولكن القرن التاسع عشر ما كاد ينصرم حتى شبت فى أوربا كلها روح الثورة العقلية والخروج على ما ألفت الجماهير من التروى والتعقل والنظر فى عواقب الأمور ، وكان الطلبة أكثر الناس قبولا لما أوحى القرن العشرون من التوثب والتهالك على فرص الحياة

وما ظنك بفئات لا تعرف ما تكاليف العيش ، ولا تدرى ما عاقبة الطيش ، ولا تفكر فيما يلاقى الآباء والأمهات من أوزار الحياة اليومية فى عصر لا يمهل القاعدين، ولا ينظر الوادعين . والطلبة مهما كانوا أطفال : ينفقون كما ينفق الرجال ، ويفكرون كما يفكر الأطفال ، ومن الصعب أن تروضهم على الاطمئنان إلى أن الحياة ليست كلها لهوا ولا لعبا. فقد كان الانسان حيوانا لا يعقل إلا إن لدغته أفاعى الصروف والخطوب . أضف إلى ذلك ما استقرت عليه الحياة الفرنسية من حب العبث الجامح فى ليالى الآحاد فتلك ليال ماحقة تقتلع ما ثبت ورسخ من أصول الأخلاق وليس من السهل أن تدعوهم إلى التريث والتمهل ، وهم يركضون فى ميدان الشباب ، فانك تدعو من لا يسمع ، وتهيب بمن لا يجيب

وكذلك تغيرت الحياة المدرسية تغيرا يوشك أن يكون تاما وتقطع ما كان بين الطلبة والأساتذة من أواصر البر والاحترام وعاد المدرسون غرباء أو كالغرباء ، وأصبح الطلبة لا يعرفون سلطانا لغير جمعيات الألعاب الرياضية ، وانطلقوا لا يلوون على شيء ، ولا يكترثون للدروس، وصاروا يجهلون أكثر الواجبات المدرسية والقومية بسبب ما اندفعوا فيه من التهاون والثورة على مختلف التقاليد ، وحسبك أن تعرف أن جمهور الطلبة فى فرنسا قد يجهل تمام الجهل من أعضاء الحكومة الحاضرة ، ومن رؤساء الأحزاب ، والبارزون بين النواب والشيوخ ، ولكنه يعرف

أبطال الألعاب الرياضية فى جميع بقاع العالم ، ويستقصى أخبار السابحين والملاكمين ورافعى الأثقال. واختراع الطيارات قد أذكى حماسة الشبان وأغراهم بالبحث عن مجهول الآفاق ، وقدمت لهم السينما غذاء قويا حيا من مناظر المخاطرات البرية والبحرية والجوية، بحيث يمكن أن تقدر أنهم لم يعودوا طلبة ولكنهم صاروا شياطين، ولهذا التمرد أثر جميل فيما أفترض ، فسيكون الجيل المقبل جيل فتح وغزوات واستكشافات ، وسيتحول الانسان إلى قوة خطيرة يتبدل بها شىء كثير من الأوضاع العلمية، والفنية ، والأدبية، والاجتماعية

والأساتذة ماحالهم ؟

إنهم فى غاية من الارتباك والاضطراب ، فلا تزال المناهج الدراسية على حالها . ولا يزال هناك شبح اللاتينى واليونانى ، وما أشبه ذلك من اللغات الميتة ، ولا يزال هناك الكلاسيك والرومانتيك ولاتزال حوادث القرون الوسطى بما فيها من علوم وفنون وآداب والأساتذة مسئولون عن وضع ذلك كله فى أذهان الطلبة طوعا أو كرها ، فما هو الحل ، وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

الواقع أن الأساتذة يعترفون بأن الحل الوحيد هو التساهل فى الامتحانات وهم لذلك يعطون شهادة البكالوريا بسخاء أى سخاء وذلك لا يمر بالطبع من غير ضوضاء ، فهم يحثون الجمهور على مشاهدة جلسات الامتحانات فى السوربون ليحكم بينهم وبين أولئك الطلبة المتمردين

وإذا سألت الأساتذة كيف ساغ لكم هذا التسامح ، اجابوا بأن التعليم الثانوى عليل لا يرجى شفاؤه لأنه يمر فى طور الشباب المجنون ، وعلى أساتذة الجامعات وحدهم أن يداووا ذلك الجنون .فان الطلبة لا يصلون إليهم إلا بعد أن تنضجهم السن وتروضهم الأيام بعد الجموح

وهناك علاجات مؤقتة لا تغنى فتيلا : تلك هى نتائج الامتحانات الشهرية حيث ترسل المدارس لآباء الطلبة ، أو أمهاتهم ، أو أولياء أمورهم بيانا بدرجات الطالب فى جميع المواد ، ولكن ما رأيك وأكثر آباء الطلبة لا يدركون شيئا من ذلك ، والطالب يستطيع بكل سهولة أن يؤول النتيجة ، وأن يلبسها اللبوس الذى يريد ، وقد يحدث أن يتفق مع بواب المنزل على تبديد الخطابات المدرسية بحيث يظل القائمون بأمره فى عماية تامة لا يعرفون كيف يبدأ وكيف ينتهى ، ولا يدركون أ ذكىّ هو أم بليد

وقد حرص فريق من الأساتذة على الاتصال بآباء الطلبة ليتم التعاون بين الفريقين على مداواة ذلك المرض العضال ، ولكن ظهر أن الأساتذة لا يتسع وقتهم لتلك الصلات الودية ، كما ظهر أن الآباء لا يستريحون إلى الأساتذة الذين يؤثرون فى أبنائهم لأن الآباء لا يزال عندهم بقية من الاثرة وحب الذات ، وهم يريدون أن يظل أبناؤهم فى حيازتهم وفى بعد عن المؤثرات الخارجية ، والآباء يفهمون جيدا أن الأساتذة مهما تقدمت بهم السن ، أقرب منهم إلى

الحياة والشباب، لأن الأساتذة بطبيعة مهنتهم قريبون من فهم الشبان الحاضرين، وما يعتلج فيهم من أمانى وآمال

ومن رجال التربية من عنى بدرس هذه الأزمة الحاضرة، ومن رأيه أنها ترجع إلى أنه لم يعد فى المدارس الفرنسية أثر لذلك الروح الفكرى الذى كان ينتظم وحدات الطلاب، فقد كانت المدارس الفرنسية لأول عهدها ترمى إلى إيقاظ العواطف الدينية ثم اتجهت بعد ذلك إلى تربية فكرة الجمهورية، ثم انصرف الناس عن ذلك كله إلى فكرة واحدة هى نتائج الامتحانات، وقد نفع ذلك وقتا ما ثم تداعت الروابط واندفع الطلبة يفعلون ما يشاءون بلا وازع من أنفسهم ولا رقيب

ولكن رأيى أنا أن هذا الاضطراب يرجع فى جوهره الى أن الطلبة والأساتذة يمثلون جيلين مختلفين أشد الاختلاف، فقد طفر الجيل الجديد، وأصبح الأساتذة من المتخلفين. ولا علاج لهذا إلا أن يقبل الأساتذة على أنفسهم فيروضوها على فهم الواقع ثم يستعدوا للنضال بأسلحة العلم الحديث، ومن سفه الرأى أن يظل فريق من الأساتذة غارقا فى تأملاته القديمة وأفكاره العتيدة كأنها نصوص مقدسة. وإذا كانت التقاليد الدينية على حرمتها ووقارها لم تعد تستطيع البقاء فى البيئات الفرنسية فان هناك تقاليد مدنية كتب عليها أن تزول. والعاقل هو الذى يفهم ذلك ويعرف أن للتقاليد أعمارا كأعمار الثياب، وليس فى مقدورنا أن نقف

حيارى مترددين ننظر إلى الماضى نظرة العطف ، وإلى الحاضر نظرة الخوف ، ولكن من واجبنا أن نفهم بسرعة كيف نتقدم إلى الميدان وكيف نتخير أسلحة النضال .

وهذه الأزمة لا يقتصر شرها على فرنسا ومصر ، ولكنه موزع على أقطار العالم القديم والعالم الجديد ، والانجليز والامريكيون فهموا ذلك أول الناس ، وانحدروا مع الطلبة يشاطرونهم الجد ، واللعب ، والعمل ، والفراغ ، وقد تلفت الطلبة الانجليز والامريكيون فرأوا أساتذتهم قد عادوا زملاء وادعين يلاعبونهم التنس ، ويماشونهم فى الطرقات ، ويساهرونهم فى المراقص وبذلك انطفأت الثورة وعرف الأساتذة كيف يعيشون فى سلام !

ولكن ما نتيجة ذلك ؟ إنها لنتيجه سيئة ! ولا يمكن أن يقال إنه هكذا يكون العلم ، وهكذا يكون التعليم . وحظ الأساتذة الفرنسيين على شقائهم وبلائهم أحسن وأفضل ، فللأستاذ أن يجاهد طلبته وأن يحارب جنونهم وشططهم ليردهم إلى الجد ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولأن يجاهد فيخفق خير له من أن يلين فيضيع

فالمشكلة فى جوهرها ترجع إلى تكوين الطلبة ، وذلك التكوين لا يتم ولا يؤتى ثمره إلا إن اهتم الأساتذة بايجاد مثل أعلى يكون غرض الجميع ، وهذا المثل الأعلى كيف نتخيره ؟ ومن أى طبيعة يجب أن يكون ؟

لقد خمدت التيارات الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فما عسى

ان نفعل فى تسيير الجيل الجديد ؟

الرأى عندى أن توجه العزائم إلى تتويج « العلم » وأن يتخذ منه مثل أعلى تخشع لهيبته القلوب ، ولكن يجب أن يفهم القراء أن هذا « العلم » الذى أدعو إلى تتويجه ليس هو العلم الذى عرفوه والذى لم يرتفع بهم عن الأرض ، بالرغم مما أضاعوا فيه من طوال السنين ، ولكن العلم الذى أدعو إليه هو العلم الذى سما بأصحابه إلى امتلاك ناصية السماء ، وصيرهم سادة فى العالمين

باريس فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠

انتهى الجزء الأول

(ويليه الجزء الثانى)

فهرس

الجزء الأول من كتاب البدائع

﴿ تمت ﴾